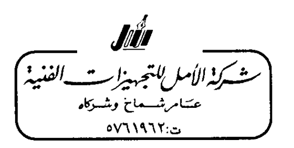
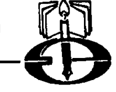
زينب الغزالى الجبيلى

نحو بعث جديد

١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م





دار التوزيع والنشر الإسلامية

٨ ميدان السيدة زينب ت: ٣٩١١٩٦١ - ٣٩٠٠٥٧٢ ص ب ١٦٣٦

إهـــداء

إلى سيدى رسول الله ﷺ .

إلى العالم الإسلامى، ندعوه للقراءة، للفهم، للعمل، لجنّة عرضها السموات والأرض.

إلى المجدد الإمام الشهيد حسن البنا.

إلى الإمام حسن الهضيبى.

إلى شهداء المسيرة، وعلى رأسهم عبد القادر عودة،وسيد قطب، وعبد الفتاح إسماعيل.

إلى كل الإخوان المسلمين، أحبائى ، وأعزائى، وإخوانى، وأبنائى فى الله.

إلى بناتى الأخوات المسلمات، وإلى البقية الخيرة من السيدات المسلمات.

إلى والدى الذى أحببته ولن أنساه.. وإلى والدتى.

إلى زوجى محمد سالم سالم حتى نلتقى فى الجنة إن شاء الله، بفضله سبحانه.



مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا، الذى جاء بالحق وصدّق به ودعا إليه، لتكون كلمة الله هى العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، فقامت به أمة، تدعو إلى الله على بصيرة، فحكمت بين الناس بما أراها الله، وسارت على طريق الأنبياء، طريق التوحيد، منذ أن تلقى آدم من ربه كلمات الهداية، التى حكم بها فى بنيه، وكانت أساس التعامل بينهم، وسار ركب النبيين وأتباعهم، فى مسيرة مباركة، كلما خفتت أنوارها، تجددت ثانية، وتعالت صيحات الإصلاح والعودة إلى شريعة الله منذ آدم عليه السلام، ونوح وهود وصالح وشعيب وإبراهيم وموسى وعيسى، حتى اكتملت المسيرة الخالدة بمحمد ﷺ النبي الخاتم، فلا نبوة ولا رسالة بعد رسول الله عليه الصلاة والسلام، ولكن علماء ومجددون من أمة الحبيب المصطفى، مكلفون من قبل الحق تبارك وتعالى، بأن يواصلوا المسيرة، مسيرة التوحيد، مسيرة الحكم بما أنزل الله، تعين الحاكم المسلم الذى ينفذ حكم الله، بالعدل والإنصاف، فإن أصاب فله أجران، وإن أخطأ وهو يريد الحق فله أجر واحد، والحاكم المسلم الذى يحكم بما أنزل الله، يحشر مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين فى الجنة، مادام يريد وجه الله الكريم.

ولما سار ركب حكام المسلمين، فى غير سبيله المستقيم، بعيدا عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فقد أصبح لزاما علينا، نحن معاشر المسلمين،

رجالا ونساء، أن نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر، ورأس المعروف هو الحكم بما أنزل الله، واتباع القرآن والسنة، غير مبدّلين ولا مغيرين.. متبعين لا مبتدعين.

ولما دققت النظر، وأعملت الفكر فى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾ [المائدة: ٤٩ - ٥٠]، ومع التمعن فى هذه الآية، ودراسة أحوال المسلمين اليوم، حكاما ومحكومين، رأيت أن مسيرة المسلمين قد انحرفت كثيرا، وابتعدت عن طريق نبينا وحبيبنا محمد ﷺ وأن هذا الانحراف قد أبعدهم عن صراطهم المستقيم، فكرت كثيرا بعمق وتمعن، فى كيفية عودة المسلمين اليوم إلى ما كان عليه محمد ﷺ وأصحابه، حتى لا تسير الأمة إلي الهلاك الذى تنحدر إليه.. فوجدت أن الحل هو فى تلك المسيرة الجديدة، بجماعة من رجال الأمة الراشدين، ونسائها، شبابها وفتياتها..

وعلى تلك المسيرة أن تدرس وتبحث فى طريق النبوة الذى ختمه محمد ﷺ ثم تعيش هذه الجماعة بما فهمت من تعاليم الكتاب والسنة، تعمل ليل نهار، لجمع كلمة الأمة الإسلامية، على مفاهيم القرآن والسنة..

ولذلك سطرت كتابى هذا « نحو بعث جديد » وإننا لنشتاق ذلك

البعث الرشيد، الذى سيظل بأنواره على مسيرة الأنبياء، وخاتمهم رسولنا الكريم الذى قال الله فى شأنه: ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ**﴾ [النجم: ٣ - ٤] وقال: و ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا**﴾ [الحشر: ٧] فبالاتباع الصحيح تعود الأمة إلى خلافتها الرشيدة، وسيادتها لعالم الإنسان المسلم أولا، ثم للعالم كله.

قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾ [الأنبياء: ١٠٧].. فالإسلام كلمة الله إلى العالم كله..

فإلى طلاب الحقيقة، أقدم كتابى «نحو بعث جديد».. مع دعواتى بالتوفيق والقبول.

زينب الغزالى الجبيلى



المسيرة

لما كانت إرادة الله – سبحانه وتعالى– أن يكون الدين فى الأرض من بدء الخليقة هو الإسلام، فقد نزلت على آدم كلمات تلقاها من ربه ليعمر الأرض بأمر الله على أساس أن الكون كله: سماءه وأرضه، الجنة التى سكنها آدم من قبل أن يهبط إلى الأرض، النار التى أنذر بها إن عصى ربه، الدنيا والآخرة، والعالم كله، فى قبضة الله وفى حكمه، يسير على منهج حياة أحكمت أسسه بيد الحق الخالق البارئ – سبحانه وتعالى– الذى أحسن كل شئ خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين.

وآدم مسئول عن تنفيذ المنهج الذى ينبغى أن تحكم به الأرض، وتحيا به النفوس المنبثة من الزوجين آدم وحواء.

وعاش آدم يتلقى كلمات الله ليستوعبها، ويقضى بها فى نفسه وفى زوجه، قال تعالى: ﴿ **فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ [البقرة ٣٧،٣٨]

وجاءت الذرية وتكاثرت، وعاشت تحت مظلة ذلك المنهج الإلهى، تلبى أمر الله بفطرة سليمة مع الكون الذى فطره الله– تبارك وتعالى– على طاعته. قال تعالى: ﴿ **ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ** ﴾ [فصلت: ١١]

فطاعة الإنسان لله– عز وجل– طاعة فطرية ﴿ **فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ**

عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ [الروم: ٣٠] فهو يولد فى أرض بلا اختيار منه، ولأبوين بلا رغبة منه، ويحيا طور الطفولة خاضعا لقانون الفطرة، وما يملك أن يشرد عنه أو يتمرد عليه وإلا هلك.

ويظل الإنسان خاضعا لقانون الفطرة، حتى يشب من طور الطفولة إلى مرحلة الصبا، ثم يصير شابا يافعا، يفكر فى الكون، وينظر فى ملكوت الله، ويتأمل فى بديع صنع الله ليدرك ذلك التناسق والتكامل والترابط بين عناصر الكون كله، فإن قدرت له الهداية من الله - تبارك وتعالي- فإن بصره وبصيرته، وعقله وتفكيره، وكل أحاسيسه تعيش روعة الإبداع الإلهى، وقدرة الخالق سبحانه وتعالى فى خلق الكون الفسيح، ويدرك الإنسان الذى أنعم الله عليه بنعمة الهداية، آيات الله فى كونه ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ** ﴾ [فصلت: ٥٣]. ذلك الحق الذى ينادى جميع خلق الله من البشر ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة: ٢١،٢٢]. وهنا يقف الإنسان مع نفسه وقفة فاصلة وهى أخطر لحظات وجوده على الإطلاق، إنها لحظات ميلاده الثانى.

والإنسان يولد مرتين.. مرة يوم ولدته أمه، وأخرى يوم يختار طريقه فى الحياة، بين الإيمان بالله سبحانه وتعالى أو الكفر به. وهنا إما أن يولد شقيا تعيسا، باختياره طريق الضلال والغواية، وإما أن يولد سعيدا

مطمئنا، بحسن اختياره ورشاد عقله، مؤمنا بالله الواحد الأحد، مصدقا برسل الله، متبعا إياهم، سائرا على دربهم، فيسلم وجهه لله، ويعلم أن الله قادر فعال رازق محيى ومميت، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وأنه النافع الضار، المعز المذل لا شريك له فى كونه، يعذب عدلا ويجزى فضلا .. والإنسان الذى تحققت فيه صفات العبودية الخالصة لله سبحانه، لا يخشى فى الحق لومة لائم، تلك العبودية التى ارتقت به إلى عوالم المعرفة بالله ، فعرف كيف يوحده، ويلتزم بمنهجه القويم.

وفى دائرة اصطباغ الإنسان بالحق[1] بحس لحظات ميلاده الثانى فى الإسلام، وكل إنسان يولد مسلما على الفطرة التى فطره الله عليها، قال تعالى: ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الروم: ٣٠]

وقال عليه الصلاة والسلام: «ما من مولود إلا ويولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»[2].

وما الإسلام الذى جاء به سيد المرسلين محمد - عليه الصلاة والسلام- إلا ذلك العهد الأول الذى أخذه الحق - سبحانه وتعالى- على خلقه، فأسلموا له وجوههم وهم فى عالم الذر، إذ ناداهم بقوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ**

(١) ﴿ **صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ** ﴾ [البقرة: ١٣٨].

(٢) رواه البخارى ومسلم وأبو داود، وللحديث ألفاظ أخرى منها: «كل مولود يولد على الملة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يشركانه» رواه الترمذى. ومنها «كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» رواه أبو يعلى والطبرانى.

أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢]

وتلك الإجابة قائمة بحقيقة الإنسان المدرك العاقل.

ولكن عندما تختلط نوازع النفس وغرائزها وشهواتها المادية، عندما تختلط حمأة الطين المسنون، بالجانب العلوى فى الإنسان، بالروح التى نفخها الله فيه، بذلك النور الذى يسرى بين جنباته، عندئذ يعيش الإنسان على وجه الأرض تتنازعه مراقى الخير والطهر والكمال، ومهاوي الشر والتمزق والضياع، وتبرز هذه الحقيقة فى ثنايا القرآن واضحة جلية ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]. و﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧ - ١٠].

ولقد أودع الله فى الإنسان طاقة وإرادة، ليست لغيره من الكائنات، وأنعم عليه بنعمة الاختيار بين طريق الخير وطريق الشر، وهى نعمة ليست لغيره من المخلوقات.

فإما أن يختار طريق الثبات على تلبية النداء الأول ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] وإجابته لخالقه ﴿بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] أى حقا أنت ربنا ورب كل شئ، ناصية الوجود كله بيدك، ثم يسلم وجهه وأمره كله لله، وهذا هو الإسلام الذى يولد به الإنسان.. قال تعالى:

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [النساء: ١٢٥]

وإما أن يضل الطريق، وتتعثر الخطى، ويتخبط فى ظلمات الباطل، ويتنكر للنداء الأول من الله: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ [الأعراف: ١٧٢] فيضيع من تحت قدميه الطريق.. طريق الإسلام.

لقد سار آدم فى الطريق السوى، وحمل الأمانة معه المصطفون من أبنائه يؤدون واجبهم لتعمير الأرض التى استعمرهم فيها الحق، قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود: ٦١] ويريد الحق بقوله: استعمركم فيها أى استخلفكم لحكمها وتسييرها بمنهج بيَّنه لأهلها، وهم مسئولون عن تحقيقه بما أراهم سبحانه لا يمارون، قال تعالى:

﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ [ص: ٢٦]

فالاستعمار بمعنى السعى لتمكين أمر الله فى الأرض، والاعتقاد بأن قمة طاعته سبحانه هو: توحيده والحكم بما أنزل الله، ومعايشة منهجه الذى دعا إليه جميع أنبيائه..

وظلت البشرية المتمثلة فى آدم وبنيه، ملتزمة بالمنهج، أمرا من الله ونهيا، حتى بدأت على وجه الأرض أول معركة فى ساحة الصراع الأبدى بين الخير والشر، بين التسليم لله سبحانه بأمره ونهيه، وبين التمرد على الله

وعلى شريعته ومنهاجه . .

جاء في ابن كثير (١) عن ابن مسعود وأناس من أصحاب رسول الله ﷺ : « أنه كان لايولد لآدم مولود إلا ولد معه جارية، فكان يزوج غلام هذا البطن جارية البطن الآخر، حتى ولد له ابنان يقال لأحدهما : هابيل والآخر قابيل، وكان قابيل صاحب زرع، وكان هابيل صاحب ضرع وكان قابيل أكبرهم، وكان له أخت أحسن من أخت هابيل، وأن هابيل طلب أن ينكح أخت قابيل فأبى عليه، وقال أختي ولدت معي، وهي أحسن من أختك، وأنا أحق أن أتزوج بها، فأمره أبوه آدم عليه السلام أن يزوجها هابيل، فأبى، وأنهما قربا قربانا إلى الله عز وجل أيهما أحق بالجارية » .

ومن قبل هذا الحدث كان الأمر طبيعيا مستجابا له من الأبناء، فالزوجة التي هي شطر حياة آدم قد أسلمت مع آدم وجهها لله وصدقت معه بالكلمات، وأنابت معه بعد الأكل من الشجرة، ولم تتكرر منهما المعصية على الأرض، ولما كان لآدم أجل سينتهي، فقد شاءت حكمة الله سبحانه أن يجعل من خلفاء عنه حملة للأمانة من بعده، ينفذون التعاليم التي أنزلت عليه .

ومع إصرار قابيل على تنفيذ رغبته بمخالفة شريعة الله، أمر آدم ولديه أن يقرب كل منهما قربانا لله، لعل مريد المعصية يفئ بذلك إلى أمر الله، فقرب هابيل أطيب ما يملك من غنمه، وقدم قابيل من زرعه قربانا وقد استثنى (٢) لنفسه أطيبه، وتقبل الله من الطيب الملتزم لأمره (هابيل)

---

(١) جـ٢، ص ٤١، ٤٢ .

(٢) ابن كثير .

فنزلت نار فأكلت قربانه ورفض قربان الآخر، ولم يقبل منه، قال تعالى: ﴿ ... فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ ﴾ [المائدة: ٢٧] وتوعد قابيل هابيل بأنه سيقتله وقال له أخوه: لا تقتلنى فتندم، والخير لك أن تتوب وتثوب إلى ربك، غير أنه أصر على قتل أخيه، فوقعت فى الأرض أول معصية، وعندما تراءت لقابيل معصيته فى صورة الطهر المسجى أحسّ فى نفسه بندم شديد، وأطبقت عليه المعصية كأنها تضغطه فى الأرض لتبتلعه، وأخذ به الندم وغمت عليه الحسرة، فماذا يفعل بأخيه، ذلك المظلوم الذى احتضنته أنوار الرضا.

وبينما هو كذلك تراءت له أنوار من السماء تحتضن أخاه، وظهر غراب يحفر فى الأرض ليوارى طائرا فى التراب، وأخذ الظالم يبكى ودماء المعصية تقطر من أنامله، وهو يوارى فى التراب أخاه.

وشهد آدم أول المعصية تقع مع بنيه، فخر ساجدا باكيا ضارعا بالاستغفار والدعاء، هاتفا: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧]. قال تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧-٣١]

وقال ﷺ :« ما من نفس تقتل ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنه أول من سن القتل »[1]

وأيضا فما من معصية يسنها إنسان، أو ضلالة يدعو إليها إلا وكان عليه وزرها، ووزر من عمل بها إلي يوم القيامة، فماذا لهؤلاء المنتكسين عن طريق الحق والخير؟! هؤلاء الذين يسهرون ليلهم ويسعون نهارهم لإخراج الخلق من دائرة الحق إلى شتات الغى والباطل؟! هؤلاء الذين عبدوا طاغوت الشهوة والهوى، بل صاروا طواغيت الشهوة والهوى فى الأرض، داعين إلى كل باطل، صادين عن كل حق.

ثم ماذا لهؤلاء الجهلة الحمقى من المسلمين الذين استخفتهم طواغيت الأرض فأطاعوهم، ونسوا ما أخذه الله عليهم من عهد، وهم فى صلب أبيهم آدم.

لقد انتكست بشرية اليوم، كما انتكست بشرية الأمس، حين نسيت العهد ونقضت الميثاق..!!

ولئن أراد هؤلاء وأولئك عزة الحياة وكرامتها، فلابد لهم عن يقظة، ولابد لهم من عودة يجددون بها العهد مع الله، ويعلنونها بملء قلوبهم وجوارحهم قوية صادقة:

﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٣]

وهكذا كلما تنتكس البشرية عن طريق الحق، فلا خلاص ولا إنقاذ إلا

(١) الإمام أحمد، عن ابن مسعود.

بحق يعتقد، وعودة إلى الله.

ألم تغط الظلمة على الأرض فى ذرية آدم لما طال عليهم الأمد، ولما ضاعت من حياتهم معانى الكلمات، وغمت عليهم جاهلية ووثنية بهتت بها كلمات الحق فى وجدانهم، وضاعت من بين أيديهم معانيها، فعاشوا وقد ماتت فى شفاههم الكلمات.. كلمات الحق.. فهل لها من ازدهار.. ليزول الخطر الذى يحيط بالإسلام من كل جانب!!

نعم، إن الإسلام فى خطر.. فهل من منقذ؟ وهل من قائم لأمر الله من جديد، يزيل الخطر.. لتقوم أمته وتعود دولته.

ازدهار الكلمات

طال الأمد ، وانقضت مئات السنين، وأصبحت قلة قليلة من أبناء آدم هى التى تعرف الحقيقة، حقيقة الإسلام.. أو تعرف جزءا منها.. والكثرة الكاثرة بعيدة عن رسالة التوحيد، قريبة من طريق الغواية والضلال، وأصبحت السيادة فى الأرض لغير المؤمنين، وغطى الباطل دنيا الناس.. عندئذ انتبهت البشرية على وقع أقدام رسول كريم، ينادى بالإسلام وبالتوحيد.. نعم جاء إدريس عليه السلام ثم نوح عليه السلام.. ليعلو صوت الإسلام بلا إله إلا الله وحده لا شريك له.. ازدهرت كلمات التوحيد من جديد.. ليعود أبناء آدم إلى رحاب دينهم.. إلى رسالة أبيهم إلى الإسلام الحنيف.. إلى الالتزام بالحلال فيقيموه.. والبعد عن الحرام فيجتنبوه.. قال تعالى :﴿ **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا** ﴾ [مريم ٥٦، ٥٧].

وقال تعالى : ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ (٧١) فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ** ﴾ [يونس: ٧١-٧٣]

نعم جاء نوح يدعو إلى الله ويرفع شعار العودة إلى الإسلام والجهاد فى سبيله.

نعم إن نوحا قد جاء ليرد قومه إلى التوحيد الذى به يزول الخطر الذى أغرق الناس فى الكفر بالله، فهو يقول لهم: ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأعراف: ٥٩] لا تستطيعون أن تدافعوا عن أنفسكم فيه. قال تعالى فى سورة نوح: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ ﴾ [نوح: ١ - ١٠]، إلى قوله تعالى: ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [نوح: ٢١ - ٢٤].

فهل كانت إلا ردة كاملة عن توحيد الله عز وجل، الذى دعا إليه آدم ومن بعده إدريس عليهما السلام، إن نوحا عليه السلام نادى أمة الإسلام الأولى عندما حادت عن الالتزام بمنهج الحق الذى التزمت به فى عهد آدم.. ناداها إلى طريق الهداية... إلى الطريق المستقيم، ورغم أن أمة نوح

كانت قليلة العدد، وكانت تتعرض للمقاومة حتى من زوجة نوح ومن ولده، والكفار كثرة غالبة، وقوة ظاهرة.. رغم ذلك انتصر نوح عليه السلام، لقد كان الكفر، مع كثرته وغلبة أهله، عالى الصوت كطبل أجوف، يصم الآذان، ولكن لا تحسه القلوب، فالكثرة الكافرة، جفت فيها منابع الفهم والإدراك، وضاع فيها العقل والبصيرة، وخافها الذين لا يعقلون، أما أولئك النفر القليل الذين آمنوا بدعوة نوح، الذين تفتحت بصائرهم بنور الحق، فقد كانوا عددا له وزن، فالعبرة ليست بالكم ولكن بنوعية البشر.. نعم كانت نفوسهم وضمائرهم ومشاعرهم، تضئ بنور الإيمان، فكانوا كشجرة طيبة ثمارها عذبة، والله – تبارك وتعالى– يقول: **﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾** [إبراهيم: ٢٤، ٢٥].

والكلمة الطيبة، تعيد للبشرية شبابها وحيويتها دائما، لأن الكلمة الطيبة هى منهج الله، تقام بها الأمم، والأمم توزن بكيفها لا بكثرتها العددية، وكم من أمم ضاعت فى بحور الشهوات، وضلت فى حلوقها الكلمات، فانهارت وماتت. والكلمة الخبيثة هى بلاء الشعوب، ومن أمثالها اليوم فى عالم المسلمين «الاشتراكية» التى عكرت مياه بحورنا، ودنست معانى المفاهيم والقيم، ومزقت بلاد المسلمين، وطواغيت الأرض يتشدقون بالكلمة، إما نفاقا لصانعيها الخبثاء، وإما تجارة بها لدى الشعوب المسلمة الجاهلة بدينها وشريعتها وكتابها.

عندما يقف شاب من شباب المسلمين العاملين، يتكلم بكلمة الحق.. كلمة الإسلام.. ألا ترون أن الكلمات تخرج من بين شفتيه نقية طاهرة مزدهرة.. إن هذا الشاب، مجدد لأمر الإسلام الحنيف، ومرشد على طريقه القويم.. وعندما يقف آخر ينبح بالاشتراكية، ويصرخ بالقومية، وينادى بالعلمانية.. ألا ترون أن الضياع يخرج من بين شفتيه، فتموت فى صدره وقلبه أنوار الإيمان بالله، وصفاء الموحدين؟!

وتنتهى قصة نوح والطوفان وولده الآبق عن أمر الله، وزوجته المعاندة وتعيش الأمة بعد الطوفان ملتزمة بالمنهج.. منهج لا إله إلا الله وحده لاشريك له.. نوح عبد الله ورسوله.

نعم.. تعيش القلة فيكثر بها الحق وأهله، مادامت التزمت الأمة بمصدر التشريع الإلهى فى حلاله وحرامه، وفى توحيدها لله سبحانه، ونطاق بيعها وشرائها، وسياسة الحكم بين أفرادها، وسياسة المعاملات داخل حدودها وخارجها.

فكلمات نوح باقية تقضى فى الأمة بعلمائها والمتخصصين فى فقه منهجها الإلهى.

ويطول الأمد، وتقسو القلوب، وتبتعد الضمائر عن موائد الحق، ويحكم الهوى، ويوسد الأمر إلى غير أهله، كما هو كائن اليوم.

قال رسول الله ﷺ:

«إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة، قيل: كيف إضاعتها. قال: إذا وسدّ الأمر إلي غير أهله فانتظر الساعة»(١).

---

(١) البخارى، ص ٢٣ - باب العلم.

وقد كان.. ولاتزال طائفة من أمة محمد ﷺ ظاهرة على الحق، تستمسك به، وتعض عليه بالنواجذ، حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك، يستغيثون الله أن ينزل عليهم رحماته، وتأتى البشائر، وإن غلفت بشدائد المحنة، ولكن النور قادم، والعودة إلى دين الله قريبة، وإنا لموقنون.

ويبعث الله سبحانه عبده هودا، وينادى فى قومه: ﴿ **يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ** ﴾ [الأعراف: ٦٥]

ويجيبه الملأ الضال المنصرف عن الحق المتغطرس على نظام الخالق.. ﴿ **إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ** ﴾ [الأعراف: ٦٦]

ويجيب النبى هود: ﴿ **يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ** ﴾ [الأعراف: ٦٧، ٦٨]

ولا يزدادون إلا عنادا وكبرا ومقاومة لنبيهم، فيقول لهم هود: ﴿ **أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ** ﴾ [الأعراف: ٦٩]

ويزدادون مقاومة لهود، فيذكرهم بأنه هو وهم معا من قوم نوح، خلفاء من بعده، مسئولون عن الأمانة التى تركها نوح فى أعماقهم وضمائرهم ليعيشوا فيها وبها وينشروها فيمن يخلف نوحا من الخلق، ويكرر لهم القول: ﴿ **أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [الأعراف: ٦٩]

وتزداد الفتنة بين هود وقومه، لأن الذين كفروا من قوم نوح، وحكموا بينهم بهوى النفس وشهوة الحكم، ليعلوا فى الأرض بغير الحق أشركوا

بالله، واتخذوا معه آلهة أخرى، فاختلت موازين القيم لديهم، وضل سعيهم، وعطلوا منهج الله الذى أخذوه عن نوح، وابتدعوا بهواهم وشهواتهم نظاما يحتكمون إليه من عند أنفسهم، وقالوا فى غطرسة وكبرياء لنبيهم هود- عليه الصلاة والسلام -:

﴿ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٠]

ومع الافتراء الباطل الذى وقفوا به يقاومون النبي هودا كانت فى الجانب الآخر مع هود: الجماعة المسلمة التى أسلمت وجهها لله بما جاء به هود، وعادت للمنهج...

نعم، وقفت مع هود البقية القليلة الثابتة على الحق من قوم نوح، التى كانت تستغيث ربها أن يبعث لها منقذا مخلصا، تلك الجماعة التى منَّ الله عليها بالهداية من بين أمة منحرفة ضلت سبيل الحق، الجماعة التى قرأت الكلمات مع هود، ووعت حقيقة الموقف فأخذت بروعة الحق.

ووقعت المواجهة، وقال هود عليه الصلاة والسلام: **﴿ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴾** [الأعراف: ٧١]

وهكذا: الحق سبحانه وتعالى ينذر خلقه، ويمهلهم بحلمه، ولكن عندما يصرون على كبريائهم خاضعين لضربات الشيطان فوق رءوسهم وقلوبهم لا يدركون الحق ولا يسمعونه ولا ينظرون بالنور ليبصروا ويفيقوا من ضلالاتهم، يأتى نصر الله لعباده المؤمنين، وقد خاب من افترى وكذب بآياته سبحانه.

نعم لما يئس هود من قومه، نصره الله والذين معه، أى أمته المسلمة من جديد يقول تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٢]

نعم: تعيش الأمة التى آمنت بهود، وصححت خطأها من جديد بالكلمات التى أنزلت عليه، تعيش بعلامات الحق التى هديت به.

ولكن الشيطان كذلك بأعوانه يعيش كدأبه المستمر فى غواية البشر يزين لهم، ويخطط لانتكاسهم، فيوسوس لهم بالتنحى عن الطريق السوى الذى سار عليه آدم وكان عليه نوح، ثم هود، طريق التوحيد.. طريق لا إله إلا الله، الواحد، الفعال، الرزاق، الحى، الباقى، المحيى، المميت، المعز، المذل.

والله - سبحانه وتعالى - يبين كيد الشيطان دائما لبنى آدم، وغوايته لهم، كما كاد لأبيهم آدم- عليه الصلاة والسلام- لما نسى العهد وأكل من الشجرة قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ (١) [طه: ١١٥]

ويحذر الله بنى آدم من الاستجابة لفتنة الشيطان وغوايته، ويدعوهم سبحانه إلى أن يخلعوا عن أنفسهم أردية الولاء له ولجاهليته ولباطله، وأن ينفضوا عن قلوبهم كل محبة له، أو ولاء لأتباعه، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٧].

---

(١) وكلمة «لم نجد له عزما» مع ضم كلمة أخرى إليها فى سورة طه «ثم اجتباه ربه» تقطع ألسنة السوء.

عناد واستكبار

الخلق فى الأرض دائما فريقان، فريق قائم بالحق، وفرق معاند للحق.

والمقاومة مستمرة بين الذين يعلمون ويتقون، والذين يستقطبون لحساب الشيطان.. ويطول الأمد.. ونجد قلة من قوم هود مثابرة على الحق منادية إليه.. ملتزمة به.. وفى مواجهتها الكثرة المستقطبة لحساب ما وسوس به الشيطان بالإغواء للتنحى عن شريعة الله، وعن عقيدة التوحيد. وتشتد المقاومة.. مقاومة القلة القليلة المعتصمة بالله، للكثرة التى غطى عليها الكفر ووسوس لها الشيطان، حتى أحالها إلى عُباد أوثان، ومرجفين فى الأرض.

والقرآن الكريم يبين ما يدبره الشيطان من الجن كان أم من الإنس، من مؤامرات، يود أن ينال بها من أهل الحق وجماعة الإيمان، فيقول: **﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾** [الأنعام: ١١٢]

ولما ضلت البشرية من جديد، بعث الله صالحا نبيا رسولا يدعو دعوة من سبقه من الرسل، ليعيد موازين الحق إلى مواضعها التى كانت عليها من قبل، بأيدى هود صاحب عاد، فدعاهم إلى الحق الذى كانوا عليه من قبل فى شريعة نوح، وذلك الذى عاد و إليه ببعثة هود.

قال تعالى: **﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ**

غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٣، ٧٤]

نعم: وقف صالح ينادى الأمة المسلمة التى فتنت بقوتها عندما اختبرت من الله بإعطائها جزءا من المعرفة، فانشأت به حضارة، وجددت به صناعة، وأشادت به معارف فى الأرض، فشيدت القصور، واتخذت من الجبال بيوتا، واتخذت منها مراكز حياة وحركة صناعة، ولكن بدلا من أن تشكر نعمة العطاء من خالقها سبحانه، تمردت وتعالت وتكبرت وبدلت نعمة الله كفرا.

قال تعالى: ﴿ **وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾ [البقرة: ٢١١]

وقال تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ** ﴾ [إبراهيم: ٢٨-٣٠]

وما ذلك إلا لأن الشيطان سول لها فأغراها حتى ظنت أنها هى التى فعلت وملكت: ﴿ **أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا**(١) **فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ** ﴾ [فاطر: ٨]

وضلوا بما أعطوا عن نعمة الله وفضله، فتمادوا حتى أشركوا بالله، فلما

---

(١) جواب الاستفهام هنا محذوف.

ناداهم نبى الله صالح لينظروا فى آلاء الله، ويتذكروا نعمته عليهم، ويفيئوا إلى آياته، حتى لا يعثوا فى الأرض مفسدين. فلم يزدادوا إلا فجورا وكبرا وعنادا ومقاومة للحق والخير، بين يدى صالح الذى أرسله الله رحمة بهم، وقالوا مستكبرين للذين آمنوا واتبعوا صالحا والتفوا حوله: ﴿ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ [الأعراف: ٧٥].

وأجابت جماعة الإسلام الملتفة حول نبيها ﴿ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٧٥]

وأخذت غطرسة الكفر وفتنة الشيطان بقلوب المستكبرين فقالوا: ﴿ إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) ﴾ [الأعراف: ٧٦]

وفى كبرياء الكفر أخذوا طريقهم إلى ناقة صالح فعقروها، وقالوا فى سفه: ﴿ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٧]

ولما طغى الجهل على قلوبهم وعقولهم وضمائرهم، طلبوا المواجهة بين الحق والباطل.. بين النور والظلام.. بين غطرسة الإنسان وكبرياء الله القادر ذى البطش الشديد.

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٨]

وذلك عدل الله الذى قال: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود: ١١٧]

وأحاط بهم غضب الله، وتولى صالح عنهم يرجو رحمة ربه وغفرانه: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا

وعاشت جماعة المسلمين.. أمة الإسلام.. أمة صالح، الوارثة للخير والكلمات والمنهج من نوح- عليه السلام- عاشت تذكر بالله وتدعو إليه..

ومرت سنوات وسنوات، والشيطان يسعى لإضلال البشرية من جديد، بأسلحة الهوى والشهوات. إنه يتفنن فى وسائل الإفساد، كما يتفنن الآن دعاة الإباحية والتحلل فى أجهزة الإعلام، وابتدأ المسلمون يخونون فى مكيالهم، ويبخسون في ميزانهم، وينكرون أمانات الناس، ويفسدون فى الأرض، ويسيرون فى طريق الضلالة، ويخالفون منهج الله، ورسالة أبيهم آدم، التى دعا إليها نوح- عليهما السلام- وجددتها نبوة هود وصالح- عليهما السلام- وقامت طائفة مؤمنة تدعو إلى الله، وتذكر الأمة، وتنادى بالعودة إلى حدود الله، وتقول فى وضوح وقوة: يا قوم أنتم خلفاء نوح وهود وصالح. يا قوم أنتم ورثة النبى وحملة الأمانة، فاخشوا ربكم فى أماناتكم، ولا تخسروا المكيال والميزان. فهذا طريق النار. إنا نخاف عليكم عذاب يوم عظيم.

وطالت الآماد، والأمة سادرة فى غيها، جاحدة لأمر شريعتها.. وقلة قليلة تنادى بين الفينة والفينة، وتجاهد باعتزال الباطل المنتشر، وتقاوم بكيف وكم قدرتها ما استطاعت أن تقاوم، وأبرز ما تتشبث به، ضراعات لله مستمرة، اللهم ابعث المنقذ! اللهم ابعث المجدد الذى يجدد نداء هود فى قومه، ونوح من قبله، اللهم أتم كلماتك. ﴿ **رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا** ﴾

[النساء: ٧٥].. هكذا أتصورهم.

واستجاب الله لأصحاب القلوب، ولأولى النهى، المثابرين على الحياة فى دائرة إسلامهم، لا يحيدون، وإن حاد الناس، ولا يكتفون بالانتماء للدين.. ولكن بإصرار على أن الالتزام هو الذى يثبت الانتماء وبغيره لا انتماء، وإنما ادعاء خاو من الدليل.

هؤلاء الذين رصدوا أنفسهم وأموالهم بذلا فى سبيل إعلاء كلمة الله فى أرضه، ولا يخافون فى الله لومة لائم، وإن اجتمعت الدنيا على حربهم، إنهم يعيشون على ضراعاتهم المعتقدة فى الله، إنهم يعيشون فى صدق إيمانهم بالله سبحانه ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحجرات: ١٥]

وبعث الله شعيبا فى «مدين» فنادى فى قومه: ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أى شريعة ومنهاج ونظام حياة، واعتقاد إله واحد لا شريك له.

﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨٥) وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٥، ٨٦]

سبحان الله.. اليوم وقد مضت على رسالة هذا النبى الكريم آلاف السنين لكن الباطل هو الباطل، وإن تنوعت أشكاله، واختلفت أشخاصه..

ولئن كانت الحرب التى شنها الشاردون على شعيب والذين آمنوا معه، حربا بسيطة الشكل. ناس يجلسون فى الطرقات يهددون من آمن، إلا أن باطل اليوم قد نظم فنونا وعلوما فى حرب المسلمين وإزهاق كلمتهم ومنهاجهم.

وهذه الآية الكريمة تبرز لنا ما يحياه المسلمون اليوم من واقع أليم، تحت إمرة ناس من أهل الباطل، لايريدون للحق رفعة، ولا للإسلام حكما.

وهم بما يملكون من الوسائل والأجهزة، يقعدون بكل صراط وفى كل مدينة، يهددون كل من منَّ الله عليه فسلك سبيل الحق والإيمان، وجهر بكلمة إسلامه الصادق العزيز ﴿**إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ**﴾ يهددونه بالقتل، بالاعتقال، بالسجن، بالتشريد.. لكن الآية الكريمة تنذرهم بعاقبة وخمية «**وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين**».

فالإسلام شامخ قوى، عزيز الجانب بالله، لأنه دين الله الذى وعد بحفظه ونصره، والله معز أمره، وناصر جنده ولو كره الكافرون..

والآيات الكريمة ترينا أن شعيبا – عليه الصلاة والسلام – جاء ليدعو قومه إلى الإسلام.. إلى شريعة العدل فى الموازين والمكاييل، وعدم بخس الناس أشياءهم، وتوضح أن مقاومة طريق الله وصد الناس عن سبيله جريمة مساوية لجريمة تعطيل الشريعة، فالذين يبغون اعوجاج الطريق بالمسلمين

عن سبيل الله، وعن طريق توحيده الواضح، وعن طريق شريعة موازينه وأحكامه فى الحلال والحرام، وفى نظام المجتمع والدولة والأمة، . . إنما لهم عاقبة واحدة . . «عاقبة المفسدين» وهى نهاية سيئة مهلكة لأصحابها .

ثم يقول سبحانه وتعالى على لسان شعيب : ﴿ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ [الأعراف : ٨٧]

وبهذا يتضح أن أعداء شعيب كانوا يؤذون أنصاره إيذاء شديدا، وذلك واضح فى قوله سبحانه : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ [الأعراف :٨٨]

وتشتد المقاومة بين شعيب وجماعته المسلمة وبين المناوئين المتغطرسين على الحق . .

ويقول لهم شعيب لعلهم يفيئون إلى الحق : ﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ [الأعراف :٨٩]

وتزداد المقاومة لشعيب، وتأتى المواجهة النهائية والقول الفصل وينادى شعيب مع جماعته المؤمنة : ﴿ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ .

ولا يزداد المقاومون للحق والمعاندون لله ورسوله إلا عنادا وإفكا كبيرا، فعن استكبار يقولون- والعمى يأخذ بعقولهم- لأنصارهم: ﴿ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٠]

وتأتى ساعة الحسم، ويقضى الحق سبحانه وتعالى بوعده لرسوله، ويأخذ الذين كفروا وحاربوا شعيبا وجماعته المسلمة بالرجفة، فيقول سبحانه: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٩١، ٩٢]

نعم.. ذهبت غطرستهم، وانتهى من الأرض حكمهم، وضاعت منهم الحياة، وانكفأوا خاسرين، لا تدركهم إلا الحسرة، ولا يحتضنهم غير الندم، النار مأواهم، جاثمين فيها، يتخبطون فى خزى جهالاتهم وخسرانهم المبين..

أما شعيب وجماعته المسلمة، جماعة الرسول الأمين، فقد وعدهم الحق سبحانه بنصره وتأييده بقوله تعالى: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٩٣]

فسحقا للظالمين بما اعتقدوا وعملوا..

وانتهت أمة الظلم من قوم شعيب، وظلت الطائفة التى آمنت به، وكانت بها أمة الإسلام، وقام بهذه الأمة شرع الله فى الموازين والحكم، فى الحلال والحرام، والعهود والمواثيق، وكانوا يمشون على الأرض بنور الله والمعرفة به، وكانوا يوحدون الله، ويتضرعون إليه ويعبدونه وحده،

ويحرسون كلماته، ولا يعدلون بها[1] .. والشيطان فى حسرة وأسى، يفكر مع أعوانه، ويدبر الأمر: كيف ينفذ ثانية إلى صفوف الموحدين، فيفك عراهم ويقطع مواثيقهم حتى يغيروا ويبدلوا فيما تركهم عليه النبى شعيب!

وأخذ الشيطان يخطو بعرجاء فكره وباطله وكفره، وتطول الآماد، وتنمحى من الأرض كل آثار الطريق، وتعيش البشرية تعبد صنما منحوتا، أو بشرا معبودا، غير أن عناية الله وعلمه بغيبه، تأتى بإبراهيم عليه الصلاة والسلام.

---

(١) قال الفراء: العدل «بالفتح» ما عدل الشىء من غير جنسه، والعدل: بالكسر: المثل. مختار الصحاح.

دعوة متجددة

إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ذلك الغلام المغمور فى قومه، المرموق بعناية الله، المحفوظ بالاختيار من صاحب الغيب..

احتضنته العناية الإلهية وليدا.. غلاما.. إنه النبى المنتظر.. النبى الرسول، الذى احتضنته العناية الإلهية.. يقيم أمة الإسلام، أمة آدم، ونوح.. أمة التوحيد التى اندثرت معالمها من بعد صالح وكانت مواقف إبراهيم مع أبيه، ومع النمروذ، ومع قومه، فهل ننتظر المجددين لأمة محمد(1). نعم. والآن، فمع إبراهيم. أما مع أبيه، فيحدثنا الحق سبحانه فيقول:

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (41) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (42) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43) يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾[مريم : ٤١-٤٥]

وكان موقف أبيه عنادا وكبرا إذ أجاب: ﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ [مريم : ٤٦]

وأجاب إبراهيم أباه: ﴿ قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (47) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي

---

(1) أى الذين يمهدون لأمة محمد.

شَقِيًّا ﴾ [مريم : ٤٧، ٤٨]

وأما موقفه من النمروذ، فيحكيه الحق سبحانه وتعالى في قوله: **﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾** [البقرة: ٢٥٨]

وهنا تقع المواجهة الكبرى بين النمروذ وقومه، وبين إبراهيم- عليه الصلاة والسلام-، وذلك حين قذف النمروذ بإبراهيم - عليه الصلاة والسلام- في النار.

يحكي لنا الحق عز وجل عن هذه المواجهة الكبرى، فيقول: **﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ ﴾** [الأنبياء: ٦٨-٧٠]

وانتهت ساعة الحسم بنجاة إبراهيم من النار، وقامت بإبراهيم في الأرض أمة الإسلام من جديد.

وانتقل إبراهيم- عليه الصلاة والسلام- إلى الرفيق الأعلى، وترك أمته بقيادة إسماعيل في مكة، وقيادة إسحاق في فلسطين، وكان إسماعيل نبيا وإسحاق كذلك، وكل منهم يقود أمته بما بيّن إبراهيم من الإسلام: **﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢) ﴾** [البقرة: ١٣٢]. يحفظون صحفه، ويقيمون شرعها، وطال الأمد، وامتدت السنون، ولما كان التوحيد باقيا، بوعد من

الله فى ذرية إبراهيم، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ ﴾ [الزخرف : ٢٨] وليتم الله نوره صارت أمة إبراهيم إلى ما صارت إليه الأمم من قبل، آدم، فنوح، فهود، فصالح، فشعيب . .

وأخذ الشيطان يحكم حلقاته حول أبناء إسماعيل فى مكة، وأبناء إسحاق فى فلسطين، وضاعت بوسوسته وبتربصه علامات كثيرة من الطريق، فبخست الموازين، وزينت المعاصى أيا كانت، وعبدت آلهة أخرى مع الله، وفى أرض فلسطين كان يبعث الله بأنبياء ليردوا الآبقين والضالين منهم إلى صحف إبراهيم، والحق الذى تركهم عليه إبراهيم عليه السلام .

ولكنهم كانوا يعاندون ويقتلون أنبياءهم، كما قال تعالى : ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة : ٨٧]

وكانت أمة بنى إسرائيل هى حاملة لواء التوحيد فى الأرض بقيادة موسى– عليه الصلاة والسلام– ثم بقيادة عيسى– عليه الصلاة والسلام– غير أنها ضلت وتمردت على موسى، ثم كفرت بعيسى . . فماذا بعد التيه والعجل . . وماذا بعد تمرد بنى إسرائيل على كل حق أقامه يعقوب، فموسى، فعيسى، الذى جاء ليهدى خرفان بنى إسرائيل الضالة إلى ما جاء به إبراهيم وتركه فى بنيه .

قال تعالى : ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ

وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٢ ، ١٣٣] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [الصف : ٥]

وقال عن عيسى – عليه الصلاة والسلام– : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الصف : ٦]

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة : ١١٦ ، ١١٧]

ولما تركوا الالتزام كلية، بدعوى الولد لله، وبتفريق الأمر بين موسى وعيسى، وبتفريق الدين، كان لابد من بعث جديد، لابد من هاد يهدى خرفان بنى إسرائيل الضالة، وخرفان النصارى الذين انحرفوا، وخرفان العرب من ولد إسماعيل عبدة الأوثان، والعالم أجمعين.

فقد ضلت الأمة . . أمة الإسلام كلها . . الأمة التى قلدها الله أمانته فى الأرض . . أمة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق .

وغدا كفرا بواحا بالإسلام . .

فهل كان من الممكن إصلاح البشرية وإعادتها إلى الحق بزعامة اليهودية أو النصرانية بأحبارهم ورهبانهم وقساوستهم . . وهم أنفسهم قد ضلوا وأضلوا، وانغمسوا فى الضلال حتى أصبحوا لايفرقون بين الحق الذى جاء به عيسي والباطل الذى ألبسوه ثوب الحق.

هل كان من الممكن أن يعود بنو يعقوب جميعا من يهود ونصارى إلي الحق، وهم الذين غطوا عليه ورفعوا بأيديهم ألوية الدعوة لعبادة الأصنام: حجرا كانت أم بشرا . . وبعد أن كفروا بدين إبراهيم وموسى وعيسى، وبعد أن ادعوا لله الولد بعزير وبعيسى عليهما السلام . . وأصبحوا منتمين كذبا لإبراهيم وإسحق ويعقوب ويوسف وموسى وعيسى، وخلعوا عن أنفسهم عقيدة الالتزام والعمل . .

هل كان من المعقول أن يعود بنو إسماعيل من العرب إلى الحق وإلى الحنيفية التى هى دين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق . .

إذن كان لابد من عودة للإسلام بنبى رسول، شاء الله أن تكون العودة بمحمد ﷺ الرسول الخاتم لكل الرسالات . . . فاتحا لكل الحق . . . متما لنصر الله، بآخر كلمات قَضى الله بنزولها . . . « القرآن الكريم » .

الرسالة الأم

إن الله برحمته كان يعلم أن أبناء يعقوب، من ذرية إسحاق ولد إبراهيم أتباع موسى، وعيسى، نبى الله ورسوله وعبده المختار من بنى إسرائيل، ابن مريم ابنة عمران، المنتهي نسبها لإسحاق بن إبراهيم، لن يصونوا الأمانة، وسيتقاعسون عنها ويبدلون كلمات الحق، قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ** ﴾ [آل عمران: ١٨٧]

وعند البيت الحرام كانت أمة العرب، من ولد إسماعيل بن إبراهيم، تلك القلة القليلة من الحنفاء، غير أن بنى هاشم، وهم الذروة من ولد إسماعيل على رأس قريش، حارسة البيت وسادنته كانوا يزعمون أنهم على دين أبيهم إبراهيم، ولكن الواقع، أن الجاهلية كانت بارزة فى منعرجات الباطل، الذى لف الدنيا بأهلها بما فيهم ذرية إبراهيم، سواء من ولد إسحاق، أو من ولد إسماعيل.

فماذا تنتظر البشرية؟ وماذا بعد ذلك التعثر المظلم بالوثنية؟ هل تنتظر إلا الغرق فى عفن الجاهلية وقسوة ظلمها؟!

ومع إصرار جاهلية العرب وجاهلية أهل الكتاب، والكل من ذرية إبراهيم، أشرقت أنوار تبشر بخير مقبل، وظهرت للبشرى علامات كثيرة، تنبئ بمجئ نبى..

فمن يا ترى يكون ذلك النبى...؟

إن العرب وأهل الكتاب يدركون جيدا أن لإبراهيم دعاء مختزنا عند الله، دعا به ربه هناك عند الكعبة، وهو يرفع القواعد من البيت، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٧- ١٢٩]

نعم، هذه الدعوة هي الرجاء والأمل بعد إضاعة بني إسحاق من ذرية يعقوب، وبعد انتكاسة النصارى بادعائهم لله الولد، واتخاذهم مع الله آلهة أخرى.

وعندما يأتي موعدها تشرق أنوارها برسالة رسول..

قال عليه الصلاة والسلام: «أنا دعوة أبي إبراهيم ورأت أمي نورا يخرج منها أضاءت منه قصور الشام» [(١)].

ولكن أي رسالة تلك.. إنها الرسالة الكبرى.. الرسالة الأم.. إنها الدعوة المجابة.. (دعوة إبراهيم وإسماعيل).. والبشارة الصادقة (بشارة عيسى عليه الصلاة والسلام).. إنه محمد خاتم الرسل، وسيد الأنبياء، آخر المرسلين، لا رسول بعده ولا نبي.. ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠]

وقال تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ

(١) مسند أحمد بن حنبل: جـ٥، ص٢٦٢.

الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة: ١٩]

جاء ليردهم عن دعوى بنوة عزير، وألوهية عيسى عليه الصلاة والسلام وعن تحريمهم الحلال وإباحتهم الحرام.

جاء ليرد العرب إلى دين أبيهم إبراهيم.. الحنيفية السمحة.. التوحيد الخالص.

جاء ليخرج الناس من ظلمات الجاهلية إلى أنوار الحق والإسلام.. جاء رحمة للعالمين.

قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا** ﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦].

وقال تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]

ولما كانت تلك هى الرسالة الخاتمة، والنبوة الأخيرة، فماذا سيكون بها...

إن عمل الرسل والأنبياء- عليهم صلوات الله وسلامه- قبل سيدنا محمد ﷺ كان له «كم» فى جزء من الأرض محدود، وهو: أن يطوعوا الإنسان على النظر فى ملكوت السموات والأرض، و«كيف» يستدل به على الله فيعتقد ربا لهذا الوجود، ثم ليعقل كيف يكون عبدا الله سبحانه وتعالى.

فمثلا أرسل نوح فى «أرض العراق» وهود فى «عاد»، وصالح فى

« ثمود » وشعيب فى « مدين »، وإبراهيم أبو الأنبياء فى جزيرة العرب كلها، وموسى وعيسى فى بنى إسرائيل، وبعدما شبت البشرية عن طوقها بمسيرة الأنبياء، وانبهرت طفولة الإنسان فى حجر النبوات، بجلال الخلق فكانت استغراقاتها فى كيف الخلق، كيف الله، كيف النبوات؟ فكانت معجزات الأنبياء عطاء من الله، لعل الخلق الإنسانى يبصر، فبدلا من أن يقول « كيف خَلَق » يقول : سبحان الله الذى خلق.

نعم كانت معجزات الأنبياء آيات للتدليل على قدرة الخالق سبحانه، وأنه ليس كمثله شئ، وأنه يقول للشئ كن فيكون، لأن الإنسان فطر على أن يؤمن بالمحسوس المنظور.

وتخطت البشرية طوق المراهقة وشبابها المتطلع إلى كل ما يبهر ويأخذ بالألباب، وانتهت مهمة المعجزات الحسية، واستقرت فى عقال الرجولة الفتية القوية بشباب سليم البنية قوى الإدراك والاستيعاب، وكانت دعوة إبراهيم ﴿ **رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ** ﴾.

نعم بزغ نور فى مكة مع ارتداد الفيل الأكبر، والفيلة وجيش أبرهة وقد جاءوا ليهدموا البيت العتيق.. ﴿ **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا** ﴾ [آل عمران : ٩٦]

ومع هذه المعجزة التى لو درست لوجدنا آياتها الكبرى نواة من نواة الذرة واشتقاقها.

ولد محمد ﷺ وأُنزل على أبرهة وجيشه فى عام ميلاد محمد الأول « طير أبابيل »، والله سبحانه يبين فى كتابه الكريم هذه المعجزة الباهرة

فيقول في سورة الفيل.. ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ** ﴾ [الفيل: ١-٥]

نعم ولد محمد فى عام الفيل، وجاءت معه البشارة.

اليهود فى يثرب يبشرون به على أنه من ولد إسحاق، ويهددون الأوس والخزرج بالانتصار عليهم، عندما يأتى ذلك النبى، وظلوا يستفتحون به حتى جاءهم بما عرفوا، فارتدوا على أعقابهم خاسرين..

قال تعالى: ﴿ **وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴾ [البقرة: ٨٩]

وبينما كان ذلك من يهود يثرب كانت إرهاصات كثيرة فى مكة تقول: إن محمدا هو النبى المنتظر- صلوات الله وسلامه عليه- كما كان هناك فى سفوح الشام رهبان فى صوامعهم يتنبأون بقرب زمان النبى الذى بشر به عيسى - عليه الصلاة والسلام- .. وعلى رأس هؤلاء « بحيرا » الراهب الذى أوصى أبا طالب بالرجوع بابن أخيه محمد إلى مكة، خوفا من اليهود أن يقتلوه حين كان عليه الصلاة والسلام فى رحلة للتجارة مع عمه أبى طالب.

ويبلغ محمد مبلغ الرجال (أربعين سنة) ذلك السن الذى يبعث فيه الأنبياء ويأتى إليهم الوحى، باستثناء عيسى - عليه الصلاة والسلام- فقد بعث فى الثالثة والثلاثين.

فماذا وكيف يكون الأمر بمحمد ﷺ؟

بعث جديد

نعم: فماذا يكون الأمر بمحمد ﷺ، ورسالته - كما قدمنا- خاتمة الرسالات وآخر النبوات.

كيف تعد جماعتها؟ وكيف يُعِدُّ محمد ﷺ لهذه الرسالة أمتها؟

إن الله الذى أرسل محمدا شاء وقضى أن تكون معجزة هذه الرسالة معجزة تتفق والطوق الذى بلغته البشرية من النضج والاستواء.

وقد بلغت البشرية رشدها، فقد أذن مؤذن الحق بأن هذه الرسالة وهذا الرسول ستكون بهما قاعدة حق حتى تتكون بهما أمة مؤمنة بهذه الرسالة، وبذلك الحق، ومسلمة لهذا الرسول قيادها، بأمر مخالف لكل ما سبق من معجزات الرسل السابقين.

لقد قدر الله سبحانه وتعالى أن تأتى معجزات الأنبياء والرسل السابقين موافقة وملائمة لطبيعة الرسالات المؤقتة. فكانت معجزات مادية حسية، من جنس ما برع فيه قوم كل نبى سابق.. لكن الله سبحانه وتعالى قد قضى فى علم غيبه بأن رسالة محمد ونبوته ستظل شاهدة على الخلق، وقائمة على الزمن.. حتى تقوم الساعة.. ولذا جاءت المعجزة ملائمة لطبيعة هذه الرسالة الخاتمة حتى تقوم الساعة.

إنها معجزة العلم والمعرفة معا.. العلم بالله، والعلم بالخلق. المعرفة بالله، ثم معرفة الخلق به.. ثم معرفة لأعماق الكون.. سماواته وأرضه بقدر ما يحمل الإنسان بفطرته المجبول عليها، من قوة الإدراك المبثوثة فيه، بما قدر له من حمل أمانة الله فى الأرض.

قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ [الأحزاب: ٧٢]

نعم، إنه علم بحق، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من عزيز حكيم خبير.. يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور.. فأى معجزة تلك.. إنها القرآن.. القرآن العربى المبين..

قال تعالى: ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت :٣]

وقال تعالى: ﴿ الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ البقرة: ١-٣]

نعم، الذين صدقوا بأن الله هو رب السموات والأرض، يهديهم بآياته الدالة عليه فى الآفاق وفى أنفسهم، ليكون ذلك يقينا فى كل حاسة إنسانية، وفى كل قبضة نفسية، وفى كل إشراقة روح، ونبضة ضمير.

قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت : ٥٢]

ويأمر الله- سبحانه وتعالى- محمدا- عليه الصلاة والسلام- فى أول إشارة يحملها إليه جبريل- عليه السلام- وهى أمر عظيم. أمر بماذا؟

أمر برمى أول حجر فى دكة الأساس لإرساء قاعدة هذا الدين.. الإسلام.. تلك القاعدة التى ستكون دائرة البداية ليقوم فوقها البناء.. بناء الإسلام..

إن محمدا يضرع فى خشوع وتبتل وإخبات فى غار حراء.. يا رب.. يارب إبراهيم، ويارب العالمين.. هل من سبيل إلى إعادة حقائق دين إبراهيم.. الإسلام يا رب إبراهيم والكون كله.. اهدنى إلى دين إبراهيم.. إهدنى إليك. ومحمد فى استغراقه يهبط جبريل فى صورة طائر أبيض فيجثو على صدر محمد فيضغطه.. يناديه.. اقرأ يا محمد.. ويشتد جثوم جبريل– عليه السلام– على صدره، ندع الرواية الصحيحة تظهر لنا روعة الموقف وجلاله.. وخطر الأمر وعظمته.

روى البخارى عن عائشة– رضى الله عنها– أنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحى: الرؤيا الصالحة فى النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه– وهو التعبد– الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء فجاءه الملك، فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، قال: فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقارئ، فأخذنى فغطنى الثانية، حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذنى فغطنى الثالثة، ثم أرسلنى، فقال: اقرأ باسم ربك الذى خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم. فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد – رضى الله عنها – فقال: زملونى، زملونى، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسى، فقالت خديجة: كلا، والله مايخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل، وتكسب

المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى (ابن عم خديجة) وكان امرءًا تنصر فى الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبرانى [1] فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب. وكان شيخا كبيرا قد عمى فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخى، ماذا ترى، فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا هو الناموس [2] الذى أنزله الله على موسى، يا ليتنى فيها جذعا[3] ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: أو مخرجى هم؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى، وإن يدركنى يومك أنصرك نصر مؤزرا، ثم لم ينشب [4] ورقة أن توفى، وفتر الوحى [5].

ويعيش محمد ﷺ وأنوار الحق تحتضنه فتلقى عليه بحقائق المعرفة تصبغه بها « ومن أحسن من الله صبغة »؟!.. لقد خرج محمد من الغار مكلفا برسالة، وحاملاً لأمانة يفكر: كيف يكون الأمر؟

والحياة دائما شطران.. كذلك قضاها الله.. رجل يمثل رأسها وامرأة تمثل نبض وجودها وجمالها، فى دوحة يظللها الهناء، أو لجة يغرقها الخوف. وقد كانت دوحة وجنة عندما قال عليه الصلاة والسلام: زملونى.. زملونى.. دثرونى.. دثرونى.

---

(١) وهى: لغة اليهود.

(٢) صاحب السر.

(٣) أى شابا قويا حتى أبالغ فى نصرتك.

(٤) لم يلبث.

(٥) البخارى/ مبدأ الوحى.

وخديجة – رضى الله عنها– تحنو عليه، وتخفف من شدة روع الموقف، وهى تستبين جلاله وروعته.

نعم. إن محمدا– عليه الصلاة والسلام– فى بيت خديجة، يحدثها عن وقائع الغار دائما.. وتسأله خديجة.. أأفزعك ذلك؟.. والرسول يطمئنها بأنه يحسها ويعتقدها رسالة وأمانة بحق، يحملها ليبلغها للناس.. إنها كلمات الرحمن الرحيم.. يا خديجة.

هكذا أحس أنه قد كان.. وحقا، إنها كلمات الرحمن الرحيم. إنها: ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ** ﴾ كل شيء.. ﴿ **خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ** ﴾ و﴿ **عَلَّمَ بِالْقَلَمِ** ﴾.. علم ماذا؟.. ﴿ **عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾.. والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ **وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ** ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣]

إن خديجة– شطر الأسرة النبوية– أخذت طريقها مع صاحب الرسالة محمد ﷺ لإعداد القاعدة.. قاعدة هذا الدين.. قاعدة حياة جديدة بكل مفاهيمها ومعتقداتها بالوجود والبعث.

أخذ التفكير والدرس فى الآيات التى نزلت وتحققت بمعانيها فى ضمير خديجة، فأخذت تحوط رسول الله فى حب، كله جندية مطيعة، تنتظر إشارة من صاحب الأمر، والرسول ينتظر كلمات أخرى من السماء، وأبطأ

الوحى وازداد اشتياق الرسول إليه، وخديجة تطمئنه بقولها الخالد : «لن يضيعك الله أبدا».

وازداد شوق رسول الله ﷺ إلى الكلمات، والرسول فى تطلعاته وضراعاته وقد تشبثت عيناه بالسماء.. يهبط جبريل – عليه السلام– فى دار محمد. فى دار خديجة بعد ما تراءى له مرات ومرات فى صور مختلفة، والرسول ﷺ يشتاقه بوجد ومحبة.

واستقرت الرسالة والنبوة الخاتمة والأخيرة.. نعم استقرت آخر النبوات والرسالات فى حجر محمد ﷺ بقاعدة مكينة، فكيف كانت تلك القاعدة التى بها قام الإسلام فى أول عهده؟

وهللت قريش عندما تأخر الوحى، وأشاعوا أن الله تخلى عن محمد فنزل القرآن يقول: ﴿ **وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ** ﴾ [الضحى: ١–٥]

فكيف يقوم ذلك الحق؟ وكيف توثق عراه؟ وكيف يربى رجاله؟..

لابد من غرس كلمة: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، محمد عبده ورسوله، فى نفس، وفى ضمير، وفى قلب، وفى روح، وفى مشاعر ومواجيد كل فرد يريد أن ينخلع من جاهليته، ويسلم وجهه لله فيأخذ بكتابه وسنة رسوله.

قال تعالى: ﴿ **بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ [البقرة: ١١٢]

وهكذا كان محمد ﷺ فى أيام الرسالة الأولى، فى مكة.. فقام الالتزام

بالاعتقاد والانتماء معا فى آن واحد، وكان وقتها أساسا قويا مكينا، فقامت أمة الإسلام بعد جماعة لا إله إلا الله وحده لا شريك له، محمد عبده ورسوله..

وأصبحت هذه الشهادة المعتقدة هى العلم الدال على الإسلام، وباعتقادها تلاقت بالنور أيدى الموحدين الذين أسلموا، لتشد على يدى محمد ﷺ بالبيعة على الإسلام، وإسلام الوجه لله سبحانه، وعلى رمى الحجر الأول فى دكة بناء القاعدة.. قاعدة لا إله إلا الله محمد رسول الله. وباصطباغ المسلم باعتقاد هذه الكلمة بعد النطق بها: يصبح ملتزما بمقتضاها، بالارتباط بكل ما يصدر إليه من محمد ﷺ قال تعالى: ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ [النساء: ٦٥]

وبذلك تستقر به عقيدته داخل دائرة الإسلام، ويأخذ فى العمل لبناء القاعدة، قاعدة هذا الدين.

وبشهادة لا إله إلا الله، يظهر إسلام المسلم، وترقى به المعارف والأوامر الصادرة من محمد ﷺ حتى نهاية الطريق، ليكون من المجاهدين فى سبيل الله، ولتستقر الدولة والأمة بهذا الجهاد.. والرائد فى ذلك اقتفاء أثر الرسول ﷺ واستيعاب الكتاب والسنة.

تلك أدوات قامت بها الدولة.. دولة الإسلام، فى عهد النبوة والخلافة.

واليوم.. وبعد ألف وأربعمائة عام أو يزيد من البعثة، وقد دارت دائرة الزمن، وأمسكت الجاهلية بأنيابها الحاسرة السوداء، على الأرض كلها

فغطتها بوثنيات متعددة، مرقعة بمرقعات، رفعت كشعارات وعلامات للإسلام والإسلام منها براء. ونشهد الله أن الإسلام لا يقبلها، ولا يقرها لأنها عين الباطل وطريقه وعندما تغطى الجاهلية على أتباعها فتعمي الحقيقة عندئذ يرسل الله الرسل والأنبياء لإنقاذ تلك الأمم: مبشرين ومنذرين، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

فماذا اليوم، ولا نبوة بعد محمد، ولا رسالة، فأين المخرج والملجأ؟ إنه نفس الطريق.. الطريق الذى سار فيه نوح وإبراهيم، وموسى وعيسى، ومحمد -عليهم الصلاة والسلام- قال تعالى: ﴿ **آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ** ﴾ [البقرة:٢٨٥]

غير أنه لما كانت لا نبوة ولا رسالة بعد محمد ﷺ فأمة محمد هى صاحبة الأمر، وعليها أن تدرسه، تلك الأمة الربانية التى بقيت بوجودها وبعثها، لأنها صاحبة الهيمنة على من سبقها من أمم ورسالات، قال تعالى: ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** ﴾ [البقرة: ١٤٣]

وقال تعالى: ﴿ **وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ** ﴾ [آل عمران:٧٩] لكن بمن تدرسه؟ وفى أى واقع تدرسه؟.. فى واقع الأمة مع عرض هذا الواقع على الكتاب والسنة. وبمن تكون تلك الدراسة؟ بعلماء ومجددين يخلعون عن أنفسهم أردية الجاهلية كلها بأمانة وصدق، وتخلص من ثقل الواقع الجاهلى.. قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ**

﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء: ٥٩]

وأنبه هنا إلى أن قوله تعالى: ﴿وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ معناه: من أصحاب الاعتقاد والالتزام والانتماء الفعلى للكتاب والسنة.

وأما الذين يحكمون اليوم عالم المسلمين، وهم يقولون مالا يفعلون، وينادون بمذاهب وفلسفات تحارب الإسلام، وتناوئ أهله، وتقيم مناهج ونظما صبغت بأيد جاهلية وخبث نية، وسوء طوية، لتستأصل شأفة أهل الحق.. هؤلاء طاعتهم إثم كبير.. قال عليه الصلاة والسلام: «لا طاعة فى معصية الله» (١).

وقال: «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره: ما لم يؤمر بمعصية فإن أُمر بمعصية، فلا سمع ولا طاعة»(٢).

وقال عليه الصلاة والسلام لكعب بن عجرة: أعاذك الله من إمارة السفهاء، قال: وما إمارة السفهاء؟ قال: أمراء يكونون بعدى، لا يقتدون بهديى، ولا يستنون بسنتى، فمن صدقهم بكذبهم، وأعانهم على ظلمهم، فأولئك ليسوا منى ولست منهم، ولا يردون على حوضى، ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم فأولئك منى وأنا منهم، وسيردون على حوضى» (٣).

إن الذين يأخذون بجانب من الإسلام وبجانب من الجاهلية، ليسوا

---

(١) صحيح مسلم: حديث ١٨٤٠، ص ١٤٦٩

(٢) صحيح البخارى- كتاب الأحكام، ص ٧٨

(٣) مسند الإمام أحمد - جزء ٣، ص ٣٢١

على الإسلام الصحيح كما يوجب الله- سبحانه وتعالى- حين يقول: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٥]

هؤلاء لا يصلح بهم الأمر، حتى ولو كانوا يمثلون مشيخة أو مجمعًا أو جماعات تتحدث باسم الإسلام.

إن الأمر جد خطير.. ويتطلب نفوسا تعرت من كل ثقل ذلك الواقع الجاهلى، وأخذت القرآن والسنة مأخذ الجد، بتنفيذ علمى عملي تقرر به لجماهير المسلمين حقائق القرآن والسنة وأحكامهما ومقاصدهما ومراميهما.

قال تعالى: ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ٦٣]

والقوة هنا: المقصود بها التنفيذ لما يعتقد، والالتزام والجهاد، وهم لا يرجون بذلك دنيا يصيبونها، ولكن الله بين أعينهم، يسألهم فيجيبوه، المسلمون أمانة الله لديهم.

وليكن معلوما: أن كل مسلم اليوم مسئول عن عدم استقرار المسلمين فى أمة مسلمة ودولة مسلمة، وقوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

إنما يعنى ذلك عندما يكون الأمر مستقرا بدولة وإمام، مع وجود بعض الأخطاء المراد تصحيحها، فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حينئذ فرض كفاية.

أما اليوم، والدولة معطلة، فالأمة كلها آثمة إن لم تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.

نعم: إن العالم يسكنه اليوم أكثر من ألف مليون مسلم، وأقول بصدق: لو صدق من هذا الكم الهائل بضعة آلاف، واستوعبوا الإسلام، وعايشوا الكتاب والسنة، واصطبغوا بحقيقة التوحيد، وخلعوا من قلوبهم ومشاعرهم عبادة البشر بطاعتهم فى التشريع بغير ما أنزل الله، وبطاعتهم فيما ابتدع لهم من أدوات الشرك، وابتداع وإحداث ما ليس فى كتاب الله، ولا فى سنة رسوله ﷺ.

نعم: لو عادت هذه الآلاف من المسلمين إلى التوحيد الحق، والاتباع الحق لأمر الله فى كتابه وفى هدى نبيه، لعادت للإسلام عزته، وتحققت معاني ومقاصد قوله تعالى: ﴿ **وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [المنافقون:٨]

ولقامت بالمسلمين فى الأرض عدالة الحكم، وانتهت جاهلية القوتين العظميين، وجاءت القوة الشرعية.. قوة الإسلام بأمة الإسلام ولانطلق النداء القرآني يدوى: ﴿ **وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا** ﴾ [الإسراء: ٨١]

ولصار قوله تعالى: ﴿ **بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ** ﴾ [الأنبياء: ١٨] حقيقة واقعة بوعد الله سبحانه فى قوله تعالى: ﴿ **لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي** ﴾ [المجادلة: ٢١]

وقوله تعالى: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ**

فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥]

وعلى ذلك ، فلابد من جمع كلمة المسلمين جميعا حول كتاب الله وسنة نبيه، فهما صحيحا لا عوج فيه، وسلوكا مستقيما لا انحراف فيه.

لابد من بعث إسلامى..

لابد من بعث جديد..

قاعدة لابد منها

من الضرورة الحتمية لعودة الإسلام وقيامه، أن تؤسس لهذا الدين قاعدة بشرية، تقوم بالحق، وعلى الحق، كما أقامها - من قبل - محمد ﷺ وذلك بأن تغرس العقيدة فى نفس المسلم بالكيف الذى غُرست به فى الأيام الأولى، التى أعقبت اللقاء الأول بين حضرة النبى ﷺ وجبريل - عليه السلام- وكما قرر النبى ﷺ فى أحاديثه الشريفة: إنه لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، قال عليه الصلاة والسلام:

«افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، فواحدة فى الجنة وسبعون فى النار، وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة، فإحدى وسبعون فى النار، وواحدة فى الجنة، والذى نفس محمد بيده، لتفترقن أمتى على ثلاث وسبعين فرقة، واحدة فى الجنة، وثنتان وسبعون فى النار، قيل: يا رسول الله: من هم؟ قال: الجماعة»[1]

فكيف أسلمت الصحبة الأولى للنبى ﷺ؟ كيف أسلمت خديجة، وأبو بكر، وعلى، وصفوة السابقين فكانوا العدة الأولى للدعوة والداعية..

لقد صنع اللقاء الأول فى الغار دائرة من النور، انتظمت حولها عدة قلوب، قالت بصدق: «نشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله».

فكانت ركيزة القاعدة الأولى للإسلام فى حجر النبوة.. وغدت دار

---

(١) رواه ابن ماجه - كتاب الفتن، حديث رقم ٣٩٩٢

خـديجـة- عليـهـا رضـوان الله- ركـيـزة الانطلاق بالحق الذى يتنزل على محمد ﷺ .

كـانوا نفـرا قليـلا غيـر أنه كـانت بركـة من الله تحـوطهم، وعناية منه سبـحانه تحفـهم، ورحـمـة منه تغشاهـم، وسكينة تتنزل عليـهم فـتـملأ قلوبهم . . فقامت بهم قاعدة علم ومعرفة ويقين، منبثق من نور الوحى ومشكاة النبوة وصدق الله العظيم إذ قال فيهم: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ (٣٢) وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت: ٣٠- ٣٣]

وأخذ الرسول ﷺ يتلقى وحى السماء، ويعلم الأمة المرتقبة ميثاقها وعقيدتها . .

أخـذ يتلقى عن ربه وتتلقى عنه الحقيـقـة تلك القـاعـدة المباركـة . . خديجة . . فالصدّيق . . فعلى . . والذين انتظموا مع هؤلاء فى دائرة الحق من القلة الندية المختارة . . قرأوا مع محمد ﷺ بصدق تلق ويقين اعتقاد . . قرأوا: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١-٥]

وقرأوا معه: ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (٥) بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ (٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٧) فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (٨) وَدُّوا لَوْ

﴿ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ [القلم: ٥-٩]

وقرأوا كذلك: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٣٤) أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴾ [القلم: ٣٤-٣٨]

وقرأوا كذلك: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ [المزمل: ٥]

وقرأوا معه أيضا: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة]

وقرأوا: ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ [المدثر: ٢، ٣]

وبالقراءة والاستيعاب، وفهم بيان محمد ﷺ لهم، عرفوا أن بهم سيكون أمر في الأرض عظيم. وأخذ العدد يزداد قليلا.. قليلا.. قليلا.. والجمع المبارك يلتف حول رسول الله التفاف السوار بالمعصم.. ومن دار خديجة، ومحمد يقرأ من الغيب المسطور، أخذت نغمة حلوة ساحرة آخذة بالألباب تتخرج من بيت الدعوة بكلمة الحق لا إله إلا الله لتنير مكة ووديانها وما حولها.. وأخذت تلك الوجوه تكسى بسمت جديد، حيث استدارت مع الحق، وقد أفيض عليها من النور المتجلى على وجه المصطفى- عليه الصلاة والسلام- وبالحق الذى أخذ يتفاعل وحقائق الإيمان فى قلوبهم، أخذوا ينظرون فيمن حولهم متسائلين هل ننادى؟ هل نبلغ؟.. غير أن المربى والمنبت والمكون لحقائق تلك اللبنات بأمر من ربه

ووحى منه سبحانه، لا يستعجل أمرا لم يؤذن به من الله العزيز الحكيم.

وبالتفاعل مع قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ كان ينتظر الأصحاب أنه لابد من أمر بذلك سيحدث..

وقد حدث .. ومع بزوغ أنوار فجر.. وقف محمد ﷺ فوق الصفا ينادى بأعلى صوته.. «يا صباحاه» وكانت صيحة معروفة مألوفة، كلما أحس إنسان بخطر عدو يغير على بلد، أو على قبيلة، على غفلة منها، نادى «ياصباحاه»، فلم تتأخر قريش فى تلبية هذا النداء، واجتمعوا إليه بين رجل يجئ إليه وبين رجل يبعث إليه رسولا.

فقال رسول الله ﷺ: «يا بنى عبد المطلب، يا بنى كعب، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم، صدقتمونى؟»

العرب لم يجربوا عليه ﷺ كذبا قط.

فقالوا: نعم، فقال لهم يعرفهم بمقام النبوة، وبما ينفرد به من علم بالحقائق الغيبية، ومن علم بالأمر الذى يخرجهم من ظلمات شركهم إلى نور التوحيد، قال لهم موعظة وإنذارا فى حكمة وبلاغة، وفى وضوح ومجابهة: «إنى لكم نذير بين يدى عذاب شديد»[1]

واخترق الصوت الكريم كل منافذ بيوت مكة.. وأخذ الكل يفكر بعمق، وتقلبت بهم الهواجس والخطرات.. فيقول البعض: إنه نداء بمنهج واعتقاد ونبض للحياة جديد.. ويقول آخرون: إنه أمر سيخلعنا من الولاء للأصنام وزعماء القبائل، ورؤساء قريش وأمرائها.

---

(١) سيرة ابن هشام- الجزء الأول، ص ٢٥٢- ٢٥٥

إنه أمر يتقرر به أن ذلك العالم الأرضى كله بيد الله كما أن السموات كلها بيد الله، فلا وسطاء ولا أرباب، ولا آلهة شتى من حجر أو بشر أو شجر، إنما هو إله واحد: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠]

وفى بحر من الصمت والدهشة لهذا الأمر يتكلم طاغوت مكة متحديا ومكابرا: « تبًا لك سائر اليوم، أما دعوتنا إلا لهذا » (١).

وأخذ عمالقة الجهالة والضلالة يصرفون الناس عن الموقف.. لقد أحس أبو جهل بخطر داهم يغير على كرسيه وسلطانه الذى لا وجود له فى ظل الحق، فأعلن عداءه لنبى الحق ولأهل الحق.

وأبو جهل هو أبو جهل فى كل زمان وفى كل مكان، ما يريد للإسلام علوا ولا لشريعته ومنهاجه حكما، حتى لا يهتز كرسيه وينتهى سلطانه وجبروته، فيعلن عداءه وحربه الحمقاء على كل من جهر بالدعوة إلى الله.. إلى الحق.. إلي الحكم بما أنزل الله.

وينطلق النبى ﷺ وتنطلق معه الفئة المباركة، وكان من بينهم ذلك الصحابى الجليل الأرقم بن أبى الأرقم، الذى شهد أن « لا إله إلا الله محمد رسول الله، وهيأ بيته ليكون الملتقى للفئة المؤمنة، المضطهدة، عثمان بن مظعون.. وأبو عبيدة بن الجراح.. وعبيدة بن الحارث بن المطلب.. وسعيد بن زيد.. وخباب بن الأرت.. وعبد الله بن مسعود.. وعمار بن ياسر، وصهيب وغيرهم رضى الله عنهم ورضوا عنه.

(١) أصل الحكاية فى ابن كثير: جـ ١ / ٤٥٥، ٤٥٦ رواية الإمام احمد عن ابن عباس.

أولئك الذين تجردوا، ففهموا ووعوا، والتزموا وتحركوا، فكانت بحركتهم دعوة، وبجهادهم أمة..

وأخذ العدد المؤمن بالدعوة الجديدة يزداد يوما بعد يوم، وليلة بعد ليلة، والرسول يجتمع بأصحابه فى دار الأرقم بن أبى الأرقم.

وعرفت مكة بأمر الدعوة الجديدة، وأخذت تردد أن محمداً يدعو لدين جديد، وأنصار محمد ﷺ يقولون: إنه دين إبراهيم.

إن النبى محمداً ﷺ جاء ليردهم إلى أصل دين إبراهيم.. الإسلام الحنيف.

جاء ليصحح لهم المسار العقائدى.. ويقرر لهم أنهم انحرفوا عن دين أبيهم إبراهيم انحرافا كليا بعبادتهم آلهة أخرى غير الله الذى خلق الكون (كل الكون)، والذى وحده إبراهيم ودعا إلى وحدانيته.

﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ [مريم:٤٨]

وإنما هو النداء للناس: كل الناس، من آل إبراهيم، وآل موسى وعيسى، وكل أهل الأرض عربهم وعجمهم.

والتنزيل يقرر أن النبى ﷺ جاء على فترة من الرسل ليرد البشرية كلها إلى دين الله.. إلى الإسلام.. **﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾** [المائدة: ١٩]

جاء ليربى رجالا ونساء، ليحملوا معه الأمانة، ويبلغوا معه الرسالة،

ويوحدوا صفوف البشرية تحت لواء «لا إله إلا الله» نظام حياة وسياسة يساس بها العالم كله: أسوده وأبيضه، عربيه وأعجميه، لتحكم الأرض كلها بما أنزل الله سبحانه، الحكيم العليم، قال تعالى: ﴿ **إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ** ﴾ [يوسف : ٤٠]

وعاش محمد ﷺ فى مكة يربى الرجال.. ويؤسس اللبنات.. ويقوى الدعامات.. ودخل دين الله من دخل.. وبايع النبى من بايع.. وخرجت الجماعة المباركة من دار الأرقم تهتف بأعلى صوت مدو بالحق متجهة إلى البيت العتيق، ثم صاعدة إلى رؤوس جبال مكة وما حولها، لتعلم أهلها بالحق الذى جاء به محمد ﷺ وظهر الحق فى مواجهة الباطل.

ومنذ أن قال الله لنبيه: ﴿ **فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ [الحجر: ٩٤] أخذ الصراع بين قريش وصاحب الرسالة يشتد.. والجاهلية ترتعد فرائصها، والمؤمنون يرجون أن يفتح الله عليهم وبهم فتحا قريبا.

واقتضت حكمة الله- عز وجل- أن يخطو محمد وأصحابه بأهل دعوته، وحملة أمانته خطوة خطوة، حتى يكون البناء مكينا.. وحتى تكون القاعدة التى يراد بها الأمة مكينة.

ولذلك استغرقت فترة التربية والإعداد الإيمانى لتلك القاعدة ثلاث عشرة سنة..

لم يتعجل المؤمنون فيها أمرا لم يقضه الله.

وعلمهم النبى ﷺ أن يصبروا ويتحملوا، وغضب حين رجا بعضهم منه أن يدعو الله ليفرج عنهم ما هم فيه من حرب شنعاء، شنها عليهم أهل الشرك والضلال.

أخرج البخارى عن خباب بن الأرت- رضى الله عنه- يقول: «أتيت النبى ﷺ وهو فى ظل الكعبة متوسدا ببردة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: ألا تدعو الله؟.. فقعد- وهو محمر وجهه- فقال: قد كان من قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد، ما دون عظامه، من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله-عز وجل- زاد والذئب على غنمه- ولكنكم تستعجلون»[1].

ولما أصبحت القاعدة قوية ضاربة بجذورها فى أرض العقيدة بدت إشعاعات النور فى وديان مكة، وحول البيت، وفى حضن الكعبة..

وأصبحت مواجهة بين قاعدة الكفر وقاعدة التوحيد، التى تبدو فى تماسكها وفى التفافها حلقة حول قائدها، رسول ربها.

وغدت الجماعة المسلمة نورا يواجه ظلمات القاعدة الكافرة.. إنها معركة قاسية شرسة فى وديان مكة..

ولكن ماذا كان؟

كانت صلابة من القاعدة لم تضعفها الأحداث، فترة سجن المسلمين وحصارهم فى الشعب، وكانت قاسية أكلوا فيها حشائش، وقطع الجلد الجاف، ولكنها فترة تربية.. فترة تكوين.. فترة تدريب على الاحتمال والصمود والثبات..

---

(١) حياة الصحابة، جـ١، ٢ / ٣١.

ليعلم أهل الإيمان أنهم حملة رسالة، ودعاة حق، مؤتمنون على أخطر ما يؤتمن عليه الإنسان، مؤتمنون على حملة راية «لا إله إلا الله»، وعلى شرح ما تلزم به وتكلف به أهلها من حقوق لله، وحقوق للخلق، من عقيدة وعبادة، وحكم وشريعة.

إنهم بناة البشرية مكلفون بإخراجها من عالم الضلالة إلى عالم الهداية.. من عالم الشرك إلى عالم التوحيد.. من عالم بشر يُعبد، لأنه يحكم فى الأرض ويأمر وينهى ويحل ويحرم، إلى عالم عدل مطلق لأن الله خالق، وخالق الكون هو الذى يشرع ويحل ويحرم، فليس لمخلوق حق تدبير أمر الخلق، بل لله وحده ذلك الأمر.

﴿ **أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ** ﴾ [الأعراف: ٥٤]

﴿ **أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾ [الملك: ١٤]

والإنسان مسئول أمام الله على ما ائتمن عليه من التكاليف العادية لإسعاد البشرية تحت مظلة التوحيد والإجابة للحق.

وهذه القاعدة المؤمنة، هى التى ستحمل أمانة التشريع الجديد، والدين الجديد، والحلال والحرام، المنبثق من شريعة «لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، محمد عبده ورسوله».

ولذلك فهذه القاعدة.. قاعدة التوحيد التى تربت فى دار الأرقم بن أبى الأرقم، وتحملت ما تحملت من عنت المشركين وأذاهم.. وصمدت أمام حصار الشعب فى مكة.. هذه القاعدة هى الجماعة البشرية الأولى، المنطلقة بحقيقة جوهرها الإنسانى من سجن الطغاة؛ طغاة البشر إلى حرية

العقيدة، بأن «لا إله إلا الله.. وبأن محمدا رسول الله» قيادة تدير أمر هذا العالم بما يوحى إليها من الله عز وجل.

ولذا فإن القاعدة تجهز تجهيزا ربانيا لتخطو خطوة ثانية خلف قائدها، لأنها تعلم أنها في بداية الطريق.

وفي مكة، وقد بدأت جماعات من المؤمنين تهاجر إلى خارجها، فلابد من أوامر جديدة يحملها جبريل - عليه السلام -، لابد من أن تجتمع الجماعة، وتلتحم بالذين خرجوا من مكة، لتعود صفا واحدا، مرتبطا بمن هاجر منها أولا.

نعم هؤلاء الذين قالوا: «ربنا الله، ثم استقاموا» لا ينتظرون شيئا بذلك غير رضوان الله، وكان كل الذى يعنيهم أن يثبتوا قواعد القاعدة ويمكنوا لها.

وإننا بدعوتنا للأخذ بفترة مكة مثلا أعلى يحتذى به، بخطى حضرة رسول الله ﷺ إنما نريد الأخذ بالحركة في مكة.. حركة التربية والإعداد لعودة الدولة والأمة إلى قاعدة الدين.. الدين ككل، وإلا فالدين قائم بوعد الله بحفظه، قال تعالى: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ [الحجر:٩]

وقال تعالى: ﴿ **كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾ [المجادلة:٢١]

وقال تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا** ﴾ [الفتح:٢٨]

وليس واردا فى فكرنا ولا دعوتنا، أننا أثناء الإعداد والتربية نعطل أية شعيرة أو حكم من أحكام الدين.. فهذا أمر مرفوض من الله ورسوله، ومن كل مسلم آمن بالله، نطق الشهادتين، وعمل بمقتضاهما.

وإذا، فنحن نخاطب المسلمين جميعا اليوم..

نعم، نخاطب أكثر من ألف مليون مسلم فى العالم كله، كثرتهم داخلة فى الإسلام بالنطق بالشهادتين.

ومن هؤلاء، نريد أن نستوعب أصل بناء القاعدة المرادة لقيام الإسلام.

وإننى لعلى يقين بحسن طويتهم.. والمسىء منهم قليل، وربما إذا فهم وعرف الحق أفاق وقام يسأل عن الكم والكيف الذى باستيعابه من كتاب الله وسنة رسوله يصبح من المسلمين العاملين بمقتضى الشهادتين، ثم لا يلبث أن يسأل ويبحث.. بم أستطيع أن أكون من بناة القاعدة.. وما هى إلا ليال يقيمها مع البناة، حتى يهتف بقلب خاشع مستسلم لله، ثم لرسوله ﷺ ثم للبناة العاملين فى تأصيل البناء.

إننى معكم.. إننى مأخوذ بالحق.. مستوعب لقوله سبحانه: **﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾** [التوبة: ١١١]

نعم.. إنه مع دمعات ساخنة عزيزة، تشق فى القلب قنوات نور يقول: «ألست معك».. ولا يفتأ يبكى حتى يحتضنه البانى الأول.. صاحب اللبنات الأولى من الورثة.. من علماء الأمة الذين خلعوا عن أنفسهم

أردية الجاهلية، ومجاملة البشر فى أمر الله.. وتمنطقوا بأردية الإسلام، ليجددوا الأمر كله بنبض الكتاب والسنة.

نعم يحتضنه الداعى، ويربت على كتفيه: «بارك الله فيك يا ولدى»..

إنها أيام قليلة تلك التى صاغت ذلك المسلم الذى كان يعيش بحسن نية وجهل للحقيقة، معتقدا أن الكلمة- أى الشهادتين- تنجيه من النار بغير عمل بمقتضاها.. إنه قد أفاق من الغفلة التى قتلت المسلمين، وعطلت الكتاب والسنة، وجعلتهم غثاء سيل، لا يعبأ بهم الخلق التافه، الضال، الضائع فى تيه الشيوعية والوجودية والوثنية والكفر بكل صوره ومجارى ظلماته.

نعم، أصبح ذلك المسلم الغافل بالأمس، لبنة فى بناء القاعدة.. وربما أصبح بحكمة الداعى وحسن تبصره فيمن تُجمع بهم كلمة المسلمين..

«كلمة أكثر من ألف مليون مسلم» حول كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وإنها لحقيقة يجب أن نعيها ونؤمن بها، وهي: «أن العبد المسلم عليه أن يعمل ويعمل وهو واثق فى وعد الله بالنصر». قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [العنكبوت: ٦٩]

ويجب أن يحذر الإنسان المسلم وساوس الشيطان، فلا ييأس، لأن النصر لم يتحقق به إلا بعد بذل كان بالنفس والمال والجهد والمعاناة.

﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ** ﴾ [البقرة: ٢١٤]

وقال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ** ﴾ [الأنعام: ٣٤]

إن القوتين الجاهليتين الحاكمتين للعالم اليوم، على دراية علمية وامتلاك للمادة الفاعلة بحكمها وتحكمها.

إن فى أيديهم الذرة ومشتقاتها، إنه الشيطان يسول ويزين، ولكن المسلمين فى حصنهم المكين، كتاب الله وسنة رسوله، يجب أن لا يخرجهم الشيطان منه فيرديهم- فيتعجلون النصر.

القوتان الجاهليتان كانتا تحكمان باسمين متغايرين، فاليوم الأمريكان والروس، وبالأمس الروم والفرس وكانت معهم قوة المادة وامتلاك السلاح، وكان محمد سيد المرسلين وخاتم النبين معه كتاب الله وبيانه من عمله ﷺ (السنة) وقال له سبحانه: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ** ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وكانت الخيل آنذاك قوة العصر.

ولكن الله سبحانه وتعالى شاءت حكمته أن يأتى لفظ القوة فى الآية نكرة لا معرفة ليستوعب كل أشكال القوة التى أمر الله بإعدادها، لإرهاب عدو الله وعدو المؤمنين فى كل زمان ومكان بما يلائمه...

فقديما كانت القوة هى رباط الخيل..

واليوم فإن الصواريخ والمدافع، والطائرات والذرة بمشتقاتها هى القوة

التى يأمرنا الله بإعدادها.

وأعود فأقول: كل المطلوب منا اليوم أن نتحرك فى دائرة مكة، لإعداد اللبنات، ولا نتعجل النصر، فالنصر مقبل، والعودة للإسلام قريبة، وإن زوّر المرجفون.. وإن حارب الكفرة أهل الحق والإيمان.

فليصبر كل مؤمن ولا يتعجل، كما أخرج البخارى.. قال خباب بن الأرت: أتيت النبى ﷺ وهو فى ظل الكعبة متوسدا ببردة وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: ألا تدعو الله؟ فقعد وهو محمر وجهه، فقال: قد كان من كان قبلكم ليمشطوا بأمشاط الحديد، مادون عظمه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ليتمّن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، ما يخاف إلا الله – عز وجل– زاد: «والذئب على غنمه– ولكنكم تستعجلون» (١).

وإننا لن نتعجل.. ولسنا اليوم فى حاجة لعدة السلاح، فالعمل بالسلاح اليوم مرفوض، إذ لم يأت وقته بعد، وربما لا يأتى إلا بعد قيام الأمة والدولة.. ولكن فقط، يكون فى حسابنا المصابرة والمرابطة حتى تتم القاعدة.. قاعدة مكة المجردة من السلاح.. المدعمة بعقيدة تفل الحديد ولا يفلها الحديد.. إنها قاعدة الحق.. قاعدة القرآن.. قاعدة السنة.. قاعدة ﴿ **الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ** ﴾ [آل عمران: ١٧٣، ١٧٤].

---

(١) البخارى.

دولة الحق

إن الإسلام وقد ربى أبناءه فى مكة تربية عقائدية يقينية، وسط أمواج الشرك وغياهب الوثنية.. وسط عناد القلوب الخربة، ومكابرة النفوس الخبيثة، فما كان ذلك إلا لأن الله- سبحانه- أراد لهؤلاء المؤمنين المستضعفين فى الأرض أن يكونوا أساسا مكينا راسخا، تقوم عليه دولة الحق فى الأرض، ليرتفع لواء الحق، ولتهدر كل ألوية الباطل، فكلمة الله هى العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، لينطلق الإسلام حاكما للأرض كلها، ولتخسأ الجاهلية: مقهورة مغلوبة، لا حكم لها ولا كلمة.. فهل دارت دورة الزمن، وستربى جماعة المؤمنين من جديد، لتعود الأمة والدولة ﴿ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [التوبة: ٣٢].

ولقد كانت الفتنة، وكان الابتلاء فى مكة، كما هو اليوم، فلينصهر المسلمون فى بوتقة الإيمان، ويذوب فيها كل غرض أو مرض قد يصيب النفس المؤمنة، فيصرفها عن الحق، والله يقول: ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢، ٣]

وما كان خروج أولئك الرجال إلى الحبشة إلا تجربة طبيعية، وتهيئة نفسية للهجرة الكبرى، من منطق الاستضعاف إلى منطق القوة.. من منطق الجاهلية الطاغية المتسلطة، إلى منطق الإيمان الحاكم المستعلى فى الأرض بأمر الله ونصره.. فما تلك الشدائد والسجون، والمشانق

والمعتقلات التى تمسك بتلابيب الموحدين والدعاة اليوم إلا إرهاصات بالعودة، فمرحبا بكل ذلك فى سبيل الله.

فما كانت الهجرة إلى الحبشة إلا إرهاصا بأن أمرا من السماء سينزل فيغطى على الكفر كله فى الجزيرة وما حولها، وما كانت طبيعة الأمر فى مكة وما وصل به الحال من عناد الكفرة الفجرة، وما وصل به الحال من ثبات الفئة المؤمنة وصبرها، واشتداد الصراع بين الحق والباطل فى مكة- ما كان ذلك إلا علامة تنذر بأن «أم القرى ومن حولها» لابد أن يقرر الحق بخصوصها أمرا بالنسبة لاستبداد قريش وتغاليها فى الحفاظ على ألوية الوثنية، ومنهج الجاهلية فى نظام حياتها.. واليوم شبيه بالأمس.

وماذا بعد:

وجاء عام الحزن.. ومات أبو طالب ولم يؤمن بما جاء به رسول الله ﷺ من الحق.. لكن أبا طالب يحب النبى ﷺ محبة الدم، فقد جعل الله سبحانه فى قلب أبى طالب محبة أبوية طبيعية، من ساعة انتقاله ﷺ من وصاية جده إلى وصاية عمه أبى طالب صاحب المكانة فى قريش.

ووقف أبو طالب درعا يحوط ابن أخيه من بطش الكفرة..

ومات أبو طالب...

وبموت أبى طالب، وموت خديجة رضى الله عنها وأرضاها، حزن الرسول ﷺ كثيرا، كان أبو طالب حماية للنبى ﷺ ومانعا للمشركين أن ينالوا منه.. وخديجة رضى الله عنها كانت وزيراً لرسول الله ﷺ، عاقلة حكيمة، وأمًّا حنونا إذا حزبه أمر، وزوجا رؤوما، وحبيبة صديقة تمسح

بحنانها وحبها عن رسول الله ﷺ عنت القساة من قريش، وتخفف بقربها منه عنت الأهل والعشيرة.

ولئن كانت حماية أبى طالب وحنان خديجة- رضى الله عنها: قد انتهى، فإن مدد الله ومعيته ونصره وتثبيته لعبده النبى لا ينتهى.. وكيف ينتهي والأمر أمر الله، وكيف ينتهى والحكم حكم الله، ألم يقل الله- عز وجل- لنبيه من قبل: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ [الضحى: ٣]

وألم يقل له: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ① وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ② الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ③ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ④ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ⑤ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ⑥ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ⑦ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ⑧ ﴾ [الانشراح]

نعم: قال له ذلك.. وما كان له ﷺ من عوض عن حب خديجة وعمّه أبى طالب: غير نور الله يضىء الطريق، ومحبة الله تكون الرفيق.

واشتدت الرغبة فى نفس قريش لتفترس محمدا ﷺ وأصحابه، ولكن بدت فى الأفق علامات فى طريق النصر.. فيما وقع للمهاجرين فى الحبشة، وإشاعة إسلام النجاشي بين المسلمين، وما تناقل بين ركاب القوافل عن إسلام فريق من الأوس والخزرج.. وما كان من إيمان من شاء الله أن يؤمن من أهل يثرب.. وما يشاع – وهو صدق- عن بيعة العقبة الكبرى تحت الشجرة.. لذلك تعجلت قريش التفكير فى قتل رسول الله ﷺ كما هو كائن الآن من تربص بالدعاة المصممين على العودة بالأمة والدولة- واجتمعوا فى دار الندوة.. وكان الشيطان قائدهم فى صورة شيخ من أشياخهم.. واتفقوا على أن يفرق دمه ﷺ على القبائل،

فيشتركون فى دفع ديته إلى بنى عبد المطلب . . لأن قتال كل قبائل قريش يصبح حينئذ أمرا صعبا .

ذلك كله بيتوه بليل فماذا كان من أمر محمد ﷺ، يا ليتنا نقف وقفة طويلة مع أحداث العالم الإسلامى اليوم، وما يدبر فى دواوين طواغيت العصر للإسلام وحماته ومعتقديه، فنقف بصدق وعزيمة مصممين على العودة لعزته ومجده .

إن محمدا ﷺ فى كنف الله وعنايته . . والجماعة الإسلامية اليوم مهما أحاط بها من بغى وظلم، فهى فى رعاية الله، وقد قال الله لرسوله : ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور : ٤٨]

ويقول الله أيضا : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ [الحجر : ٩٥]

ويقول له : ﴿ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [فاطر : ٨]

وكل ذلك كائن وقائم للمجددين من بعده ﷺ :

ويأذن الله بالهجرة إلى يثرب صاحبة السبعين رجلا وبضع نساء . . أرض الموعد ، والنصر، والتجميع للحق، بعد دار الأرقم بن أبى الأرقم، وقد شب أهل الإيمان عن طوق الحضانة، وأصبحوا جماعة قوية صلبة، شدت قوائم القاعدة التى بها ستكون المسيرة الجديدة على وجه الأرض .

وكان أبو بكر – رضى الله عنه – قد تخلف عن اللحاق بيثرب : طاعة لأمر منتظر، وكذلك على – رضى الله عنه – .

واجتمع شباب قريش متقلدا كل منهم سلاحه أمام دار رسول الله ﷺ.

اجتمع أهل الباطل أمام دار الحق، واهمين أن أمر الحق أوشك على النهاية، فلن يسمع له صوت بعد الليلة، ولن يرتفع له نداء بعد.

اجتمع عبدة الحجارة ودعاة الوثنية أمام دار الداعى الأول إلى التوحيد، ظانين أن البقاء من بعد الليلة لآلهتهم ووثنيتهم، وأن الفناء لدعوة محمد وأصحابه.

ليفعل أهل الضلال ما يفعلون.. وليتآمروا ما يتآمرون، فالله متم نوره، ولو كره الكافرون.

ويقضى الله ما يريد.. وينام على – رضى الله عنه– فى فراش النبى ﷺ، والنبى وصاحبه الصديق– رضى الله عنه– فى موكبهم المبارك، المسددة خطاه إلى الغار.. وعلى قلوب المشركين عمى، وعلى أبصارهم غشاوة، وعلى رؤوسهم التراب، والله – سبحانه – يقول: ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ** ﴾ [يس: ٩]

والناس المضللون اليوم، المصرون على حرب الإسلام ومسيرته هل سيصرون.. كلا، إن الله من ورائهم محيط.

ومن الغار إلى خيمة أم معبد.. ثم إلى يثرب.. وأحداث كثيرة وقعت، وكلها تثبت لرسول الله ﷺ معجزات ومعجزات، لكنها لا تشغله، فمعجزته الكبرى هى الكتاب.. وقضيته الكبرى هى إقامة أمر الله فى الأرض.

يخرج النبي ﷺ من مكة مولده ومنشئه.. مكة مهوى الأفئدة وملتقى القلوب، لكن شيئا من ذلك لم يمنعه ﷺ هو وأصحابه من مغادرة الوطن، ومفارقة الأهل والسكن، حين ضاقت الأرض على هذه الدعوة والعقيدة، وتنكر أهلها لهما، ولقد ظهرت عاطفة الحب لمكة فى قول النبي ﷺ مخاطبا مكة:

« ما أطيبك من بلد وأحبك إلىَّ، ولولا أن قومى أخرجونى منك ما سكنت غيرك »(١)

والله يقول: ﴿ **يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ** ﴾ [العنكبوت: ٥٦]

ويخرج النبي ﷺ وصاحبه إلى الغار، ويرى الصديق- رضى الله عنه- آثار المشركين، ويقول: يا رسول الله لو أن أحدهم رفع قدمه لرآنا.. قال ﷺ: « ما ظنك باثنين الله ثالثهما »(٢).

وفى ذلك يقول الله تعالى: ﴿ **ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** ﴾ [التوبة: ٤٠]

وإن الله لمع جماعة المسلمين اليوم، كما كان معها بالأمس.. ويمضى الركب المبارك تحفه العناية، وتحوطه المعجزات فى الغار.. وعند الشاة فى خيمة أم معبد.. ومع سراقة بن مالك.. وعندما بركت الناقة فأقامها فعادت فبركت، فقال: اتركوها فإنها مأمورة.. وفى المدينة.. هيأ الله

---

(١) رواه الترمذى، عن ابن عباس مرفوعا، ورواه الحاكم، وابن حبان.

(٢) البخارى: كتاب التفسير.

أرضها لإقامة الدولة وإعلاء الكلمة.. والنبى ﷺ مشغول بأولئك الرجال الذين اكتملت مدة حضانتهم فخرجوا ليوث عرين.

وإنها لعودة منتظرة بالخروج من سجون الطغاة، وإنها لقريبة مادام جند الإسلام يتساءل: ماذا يريد الله بنا فى العالمين؟.. إنها أمة منتظرة، وإنها لآتية.. إنها دولة مرتقبة.. إنها لمقبلة.. إنها كلمة الله فى أرضه دون إعلائها النفس والأهل والمال.. إنها أمانة الخلافة في الأرض.. والقوامة على البشرية جميعا.. ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً** ﴾ [البقرة:١٤٣]

إنها معركة الحق والباطل وستعلو أعلام الحق، وإنها لآتية، طال الزمن أو قصر.

ويأتى أهل الهجرة من الحبشة.. يأتون إلى المدينة.. ويأتى إليها أيضا المسلمون من مكة: رجالا ونساء.. غير أنه مازالت بقايا من الرجال والنساء والولدان فى بعض بيوت مكة، سجناء معذبين يحال بينهم وبين اللحاق برسولهم ﷺ وركبه الكريم، ويسعى النبى ﷺ بصدق النبوة، وإجلال الوحى.. يسعي لإقامة المجتمع المسلم، وإقامة الدولة المسلمة.. آخى بين المهاجرين والأنصار، بين من ترك أهله وماله وولده مهاجرا إلى الله ومن آثر على نفسه حفاظا على الصف ووحدة القلب، فوقف ماله ونفسه وداره لأخوة إيمانية جليلة.

وقامت الدولة.. دولة الحق.. قائدها وحاكمها محمد ﷺ، دستورها القرآن.. غايتها الله عز وجل.. أسمى أمانى أبنائها: أن يموتوا فى سبيل الله.

وهنا نقول إن نبذ الخلاف اليوم ضرورة حتمية، سواء فى الفكر أو الرأى، فوحدة الأمة ضرورة حتمية لنجاح جماعة المسلمين.. والكتاب قائم، وهو المرجع، والسنة الصحيحة قائمة، وهى البيان... فلماذا نختلف؟

إن الأعداء يبذلون فى سبيل فرقة المسلمين واختلافهم حول دعوتهم أغلى ما يملكون، فهل ننتبه؟! إن الفرقة هى الداء، والوحدة هى الدواء.. وكان لابد من مواجهة بين دولة الحق، ودويلات الباطل فى كل مكان.. فى الجزيرة وفى خارج الجزيرة.. مواجهة متغايرة المعالم والسمات.. ونودى محمد ﷺ لأول مرة من ربه بالقتال.

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ [الحج: ٣٩-٤١]

ولم يشأ الله عز وجل أن يأمر نبيه من قبل فى مكة برفع راية القتال، لأنه لم تكن للمسلمين حينذاك قوة تستطيع أن تقوم بذلك، بل كانوا قلة مستضعفين محاربين مقاتلين.. وها قد قويت شوكة المسلمين، وتجمع شملهم من الحبشة ومن مكة بالمدينة.

يهبط جبريل- عليه السلام- على موعد مع النبى ﷺ، موعد عمل

وإعداد للرجال.. فالمسلمون أصبحوا قوة وجماعة: صفها واحد، وفكرها واحد، إنه القرآن.. فكيف تتعدد حوله الفكرة.. وكيف - وهو النداء- تفترق الجماعة.. الكتاب واحد.. والقائد واحد، والكل رجال ونساء: وجهتهم واحدة.

وقد أعدوا - عمليا- فى مكة، وتربوا إيمانيا فيها، وأصبحوا لا ينتظرون إلا إشارة من قائدهم ﷺ، دخلوا مع الله فى تجارة.. فى بيع وشراء، فأعلنوا عزمهم على بذل النفس والمال فى سبيل الله، والله - سبحانه وتعالى- يخبر عنهم: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾ [التوبة: ١١١]

وبتلك الوحدة المتراصة ينزل نصر الله، وإننى لأحسها من الله حقا، وأعتقدها صدقا، إن القاعدة فى الإسلام حتى تقوم الساعة: بيعة وشراء، شراء من الله، وبيعة من المؤمنين، وتلك الآية من سورة التوبة تمثل القاعدة تمثيلا واضحا لأهل اليقين، حتى تقوم الساعة، ولا تزال طائفة من المؤمنين قائمة على الحق، وفى بيع دائم لله..

﴿ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم...** ﴾ [مريم: ٥٨].

ووحدة الصف والفكر حول القرآن والسنة اليوم نحن فى احتياج إليها أشد من الأمس.

لقد بايع المسلمون رسول الله ﷺ على الإسلام فى دار خديجة،

وكذلك فى دار الأرقم بن أبى الأرقم، ثم تحت الشجرة (بيعة الرضوان) على أن يمنعوه من أعداء الله.. بالله، وبما عاهدوا عليه الله والرسول.. فهل من عودة إلى بيعة تجمع ولا تفرق، وتوحد جماعتنا لا تعددها، إنها أصبحت ضرورة حتمية للنصر اليوم... فى هذه المرحلة.

لقد انتقلت الدعوة إلى طور جديد.. طور الإيجابية فى الاعتقاد.. الإيجابية فى العمل.. الإيجابية فى التنفيذ.. إيجابية اعتقاد الكلمة والالتزام بها.. من قبل كانت جماعة المسلمين تقول: « لا إله إلا الله محمد عبده ورسوله » ولها الجنة.. أما اليوم فغدت الاستجابة للكلمة، والالتزام بالمنهج، والبيعة على الجهاد تمثل واقع الذين قالوا: « ربنا الله ثم استقاموا » بمعنى لا إله إلا الله، واستقاموا على أن العمل بما تكلف به الكلمة هو الإسلام.. اعتقادا وجهادا: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ** ﴾ [الصف: ١٠-١٣]

ومع فقه آيات القتال والجهاد، والأمر والنهى، كان لابد من حضانة جديدة للقاعدة الملتحمة بالمهاجرين والأنصار.. حضانة لا تستغرق الوقت الذى استغرقته فترة الحضانة فى مكة.. ولكنها فترة حركة مستمرة متجددة بعمل تنظيم متحرك برجال القاعدة.

حضانة للرجال والتنزيل تحتضنهم معانيه ومراميه وغاياته، وكل

أهدافه، ثم تطلقهم أسودا منقضين على الباطل أينما كان، وكيفما يكون.. غير متعلقين بحياة تبقى أو مال يبقى.. بل الحياة والنفس والمال من الله وبالله، وإلى الله.

وعندما بايع الرسول ﷺ الأنصار تحت الشجرة وسألهم أن يمنعوه ما يمنعون منه أنفسهم وأموالهم، كان لابد من عمل يقوم به الأنصار، تأمينا لحدود بلادهم وأرضها كذلك.. وقد احتضنتهم مسئولية البيعة مع الله ومع رسوله.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾ [الفتح: ١٠].

وفى المدينة وقد عاشوا بفقه البيعة والمسئولية.. مسئولية الأفراد والجماعة نحو دولتهم المقبلة.. أخذ الأنصار يفكرون فى تأمين كل فرد من أفراد الجماعة المسلمة.. وما أن وطئت أقدام الموكب الكريم.. موكب الحق إلى دولة الحق.. وما أن وطئت أقدام المهاجرين أرض الدولة الجديدة،، «المدينة» إلا وظهرت الثمار الجنية للأخوة الإيمانية بين المهاجرين والأنصار.. وكيف لايكون ذلك وهى أخوة عقيدة ترتقى بأصحابها.. فلا أنساب ولا أحساب، ولكن دين الله.. شريعة الله.. منهج الله.

وكيف لايكون ذلك وهم جميعا أبناء غاية واحدة، دون بلوغها كل شئ: مالهم واحد، ودينهم واحد، ومسئوليتهم واحدة، وغايتهم واحدة، وطريقهم واحد.. ومنهجهم واحد.. والله سبحانه وتعالى يتكلم عنهم فى كتابه الكريم مبينا كيف يكون صدق العقيدة وصدق الولاء لله

وللرسول وللمؤمنين: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَّنَصَرُوا أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٧٢- ٧٤]

وبعدما وقعت حركة التكافل الاجتماعى الإيمانى فى المدينة، وأصبح تأمين كل (مسلم) مؤمن مسئولية الجماعة كلها.. وأمن المجموعة كلها مسئولية كل فرد منها.. غدا الأصحاب- مهاجرين وأنصارا- يقولون لرسول الله ﷺ عندما يبلغهم أمرا من الله، « بأبى أنت وأمى يا رسول الله » صدقا للإيمان، ووفاء بالبيعة.. وجهادا فى سبيل الله.. وإنها لحقيقة يجب أن نعيها: أن الوحدة ملتزم النصر والتمكين.

وجاء أمر تأمين أرض المدينة ثم تأمين الدعوة والداعية والجماعة، فقامت مواثيق وعهود بين المشركين وأهل الكتاب، وبين الرسول ﷺ، وكان مجمل ما تريده تلك المواثيق والمعاهدات: أن يحالف هؤلاء محمدا ﷺ بأن يقاتلوا معه من يهاجم المدينة على أن يقاتل معهم رسول الله ﷺ من يهاجم حدود نجوعهم وتخومهم.. بذلك أمنت الأرض، وأمن المسلمون فى دارهم.

وكان لابد – بعد ذلك – من خطوة هامة، وهى تأمين الحدود، وكان ذلك بالعسس الذى يبعثه رسول الله ﷺ ليأتى له بأخبار الأعداء، وفى

مثل قوافل قريش إلى الشام والعودة منها.. وبذلك الانبثاق المتكامل المتناسق لتأمين المجتمع الجديد، أصبحت جماعة المسلمين في قوة ومنعة يحس معها العدو المتربص بخوف وتوجس: ﴿ **لأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ** ﴾ [الحشر:١٣]

نعم، لما استوت حركة الفهم وفقه ما أنزل الله، نقل الله العزيز الحكيم محمدا ﷺ وأصحابه إلى حركة اكتمال العمل وإنشاء الدولة، فكانت مقدمات الجهاد، فى قوافل البعوث التى سبقت بدرا الكبرى.. فهل من عودة!؟ إنها لكائنة إن شاء الله..

لقد قام النبى وأصحابه بهذا العمل الجليل الذى سبق بدرا.. تهيئة لدخول المعارك الفاصلة بين الحق والباطل.

وكانت أول معركة وأول غزوة فى تاريخ الجهاد الإسلامى الكبير..

وعقد أول لواء فى الإسلام لحمزة بن عبد المطلب، فى شهر رمضان، ثم توالت المعارك والغزوات والصولة والدولة للحق..

واليوم: يجب أن تدرس الجماعة المسلمة عدة العصر وما يلزمه، وتعد له «الذى به تحقق الجماعة غايتها إن شاء الله».

وأراد الله أن يتم نوره، وأن ينصر جنده ﴿ **فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا** ﴾ [الفتح: ١٨] وجاء فتح مكة ليدخلها محمد ﷺ وأصحابه منتصرين أعزة.. وما كان ﷺ بالذى يقابل الإساءة بالإساءة فلما دخل مكة قال لقريش: «يا معشر قريش ما ترون أنى فاعل بكم؟»

قالوا: خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم.

قال: فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: «لا تثريب عليكم اليوم اذهبوا فأنتم الطلقاء»(١).

إن النبي ﷺ كما حكت عنه عائشة ما كان لينتقم إلا لله، وما كان ينتقم لشيء في نفسه قط، وما ضرب شيئا قط بيده، إلا أن يجاهد في سبيل الله، فما كان ﷺ بالذي يفتك بالذين طردوه وعذبوه، فهو يدعو إلى حق، ولابد أن يصل الحق إلى كل البشر، ولابد أن يحكم الحق حياة البشر.. فالحكم والسلطة والدولة ليست مقصودة لذاتها كما تحس من أولئك الذين يحكمون دول المسلمين اليوم.

ناس متسلطون، طغاة بغاة، لايريدون من السلطة والحكم إلا السلطة والحكم، وإن ظلم من ظلم، وإن جاع من جاع، وإن تعري من تعرى، اتخذوا السلطة ربّا فاتخذتهم عبيدا..

لقد فتكت الشراذم الضالة التي اعتلت كراسي الحكم في بلاد المسلمين بمن كانوا لهم خصوما.. وأخذوا أموالهم وشردوهم.. وقتلوهم، لا لشيء إلا لتلك النزوة الشيطانية التي تملكتهم.. نزوة الحكم والسلطة. لكن رسول الله ﷺ صاحب دعوة وصاحب فكرة، وصاحب عقيدة، يحرص على أن يعتقدها كل الناس، ويحرص على أن يحيا الناس على وجه الأرض لا يحكمهم إلا الله، ولا مشرع لهم إلا الله، لذا كان يرفق إن كان للرفق والصفح ثمرة، وكان يضرب ويجاهد ويقاتل، إن كان لذلك ضرورة شرعية.. لذلك قال لأهل مكة وهم خصوم: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

---

(١) زاد المعاد: جـ، ص ٤٢١.

ولئن كانت إقامة أمر الله وحكمه فى الأرض واجبة، بل هى أوجب الواجبات، فلا يتم هذا أبدا إلا بدولة، وما لايتم الواجب إلا به فهو واجب.

.. واليوم أيها المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها، ماذا يكون وقد عادت الجاهلية إلى دائرتها الأولى، تغطى أرض الإسلام وعقول ومشاعر المسلمين على صورتهم وجوهرهم، حتى أصبحوا فى بله وحمق يقولون: إن «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، محمد عبده ورسوله» بغير عمل، وبغير التزام تدخل الجنة، وإن اتبعوا الكفار فى تشريعاتهم وفي كل سلوكهم، حتى «ولو دخلوا جحر ضب دخلوه معهم» وما يعلمون إنها تقال فتدخل الإسلام، فإن لم يعمل بها قائلها ويلتزم بمقتضاها، ويحيا سلوكها ومنهاجها، فقد قالها، وهى حجة عليه لا له!

لابد من خلفاء عن النبى ﷺ فى أمته، حفظة للكتاب، مكلفين من قبل الله -عز وجل- بالعمل على إقامة أمر الله فى الأرض، بالعمل على قوامة الإسلام على منهج الحياة.

هؤلاء يخبر ﷺ عن جماعتهم، فيقول: «لاتزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق، لايضرهم من خالفهم ولا من خذلهم، حتى يأتى أمرالله»(١)

ويقول: «بدأ الإسلام غريبا، وسيعود غريبا كما بدأ، فطوبى للغرباء.

---

(١) هذا الحديث، متفق عليه من البخارى ومسلم، ورواه الترمذى، وابن ماجه، والإمام أحمد وابن حبان، وعبد الله بن الإمام أحمد فى زوائد المسند، وابو داود، والحاكم، وله عدة روايات وعدة طرق.

قيل: من الغرباء يا رسول الله؟ قال: «الذين يصلحون ما أفسد الناس»[1].

لابد أن تعود بإذن الله ونصره، الدولة المسلمة، كما كانت من قبل، دولة إيمان... دولة إسلام.. دولة حق..

---

(١) رواه الإمام أحمد وللحافظ بن رجب كتاب خاص في شرحه اسمه «كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة».

الإيمان وحقائقه

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال:

« كان رسول الله ﷺ يوما بارزا للناس، فأتاه رجل، فقال: يا رسول الله، ما الإيمان؟ قال: « أن تؤمن بالله وملائكته وكتابه ولقائه ورسوله، وتؤمن بالبعث الآخر». قال: يا رسول الله؟ وما الإسلام؟ قال: « الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤدى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان». قال: يا رسول الله وما الإحسان؟ قال: « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإنك إن لم تره فإنه يراك». قال: يا رسول الله: متى الساعة؟ قال: « ما المسئول عنها بأعلم من السائل، ولكن سأحدثك عن أشراطها: إذا ولدت الأمة ربتها، فذلك من أشراطها، وإذا كانت العراة الحفاة رؤوس الناس، فذاك من أشراطها، وإذا تطاول رعاء البهم فى البنيان فذاك من أشراطها، فى خمس لا يعلمهن إلا الله» ثم تلى ﷺ ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ** ﴾ إلى قوله :﴿ **إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ [لقمان: ٣٤]، ثم أدبر الرجل، فقال رسول الله ﷺ : « ردوا على الرجل، فأخذوا ليردوه، فلم يروا شيئا، قال رسول الله ﷺ: هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم»(١).

« الإسلام والإيمان والإحسان » حقائق قائمة بأصل واحد، ممثل لجوهر الدين، دين الله سماه « الإسلام » فى قوله: ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ** ﴾

---

(١) أخرجه الشيخان.

[آل عمران: ١٩]، وقوله: ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ [آل عمران: ٨٥]

وقوله: ﴿ **وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ** ﴾ [الحج: ٧٨]

وقوله: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ﴾ [المائدة: ٣]

فما هو موقع الإيمان من الإسلام؟

هو موقع الروح من الجسد.. هو موقع القلب من الجوارح، فالإسلام والإيمان جوهر الحقيقة الإلهية التى تتحقق بها إرادة الله ومراده من الإنسان فى الأرض.

فالإنسان هو الوعاء الذى أراد الله سبحانه أن يصب فى جوهره الحسى المدرك تعاليمه سبحانه: الحاملة لعقيدة الإسلام والإيمان، المفصلة فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وذلك هو مراد قوله تعالى: ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ** ﴾ [الأحزاب: ٧٢]

وهذه الأمانة هى تكاليف الدين المكونة للبناته من الإسلام وتعاليمه، والإيمان وموجباته.

وفى الحديث المذكور، يبين الرسول ﷺ أن الإيمان مرتبة تعلو مرتبة الإسلام، وأن الإحسان مرتبة تعلو مرتبة الإيمان، وهى مراتب فى الدين، وليست عوالم مستقلة، فقوله ﷺ: «هذا جبريل جاءكم يعلمكم

دينكم» فجعل الدين هو الإسلام والإيمان والإحسان، وكما يقول ابن تيمية: «نتبين أن ديننا يجمع الثلاثة، لكن هو درجات ثلاث، مسلم ثم مؤمن، ثم محسن» (١).

كما قال تعالى: ﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾ [فاطر: ٣٢]

والمتقصد والسابق كلاهما يدخل الجنة بلا عقوبة، بخلاف الظالم لنفسه.

وهكذا من أتى بالإسلام الظاهر، مع تصديق القلب، لكن لم يقم بما يجب عليه من الإيمان الباطن فإنه معرض للوعيد.. والمحسنون أخص من المؤمنين، والمؤمنون أخص من المسلمين.

وبهذا نريد أن نصل إلى الحقيقة المرادة، وهى أن الإسلام بداية طريق الإيمان، ويقطع الطريق باستيعاب أوامر الله ونواهيه: قرآناً وسنة، وبذلك نكون مسلمين مؤمنين، قد بلغنا مراد الله فينا، وقوله فينا: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾ [آل عمران: ١١٠]

والمؤمن لم يبلغ مرتبة الإيمان إلا بمجاهدته لنفسه، وتنقيته لسريرته، وإخلاصه من قلبه وروحه، والتزامه بالإسلام: ظاهره وباطنه.

وكما قال سفيان بن عيينة: كان العلماء فيما مضى يكتب بعضهم إلى بعض بهؤلاء الكلمات: «من أصلح سريرته أصلح الله علانيته، ومن

(١) كتاب الإيمان، ص ٦ .

أصلح ما بينه وبين الله، أصلح الله ما بينه وبين الناس، ومن عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه»[1].

والمسلم الذى لم تخالط بشاشة الإيمان قلبه، ولم تنزل حلاوة الإيمان روحه، ولم يكن ظاهره وباطنه سواء، لا يعتبر مؤمنا.

والقرآن يكشف زيف ادعاء الأعراب للإيمان، وابتعادهم عن حقيقته فيقول:

﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٤]

وهنا نرى الله- سبحانه وتعالى- يجعل للإسلام مكانا غير الذى يجعله للإيمان بقوله سبحانه: «ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم».

فالإيمان مكانه القلب، والإسلام هو الالتزام الظاهر.

والعقل هو مركز النظر والاستدلال لاعتقاد الإسلام، والقلب هو مركز الإبصار لاستيعاب الإيمان.

ومن الناس من يسلم تسليما نظريا بحقائق الإيمان.

هل تؤمن بالله؟ ... فيقول : نعم

هل تؤمن برسوله؟ ... فيقول: نعم

هل تؤمن بملائكته، بالبعث، بالجنة، بالنار؟ سيقول : نعم

لكن هذه الحقائق لا تمثل فى قلبه مثقال ذرة من اليقين!

---

(١) رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب «الإخلاص».

والله يقول فى مثله: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [البقرة: ٨-١٠]

والإسلام امتداد لحقيقة الإيمان، تلك الحقيقة التى يعيش بها العقل فيسلم بها ويشهد وذلك هو النطق بالشهادتين «أشهد أن لا إله إلاالله وحده لاشريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله» وبذلك التصديق والتسليم العقليين يعصم المرء ماله ودمه وعرضه.

غير أن ذلك التصديق قد ينظر فيه العقل ويتدبر حتى يبلغ مرتبة من التصديق تتخطى فيها ملكات العقل إلى مجارى النفس ومخالج الضمير، فتتفتح بصائر الإنسان، فينتقل المسلم من مجرد التصديق النظرى إلى اليقين القلبى، والتصديق العملى، و«ليس الإيمان بالتمنى، ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل» وإن قوما غرتهم الأمانى، فقالوا: نحسن الظن بالله، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل. ولن يعود المسلمون كما كانوا سادة للأرض إلا بحسن العمل والارتقاء إلى اليقين الإيمانى، فيعيش الإنسان حينئذ الإسلام بأركانه تعايش عمل واستيعاب للمعنى والصورة معا، فتسير به الشهادة سيرا عمليا يتلقى فيه الإسلام بتفصيلاته: حلاله وحرامه، فروضه وسننه وواجباته ومستحباته، فلا يحسها إلا نقلة ترتفع به إلى معارف جديدة يحسها فى لحظات أنس بالله: صاحب الشهادة والهادى لمقتضاها والمناجى فى الصلاة.. والمقصود بالصوم والزكاة والحج.. وبذلك الصدق فى الأداء: يعود المسلم إلى ما كان عليه السلف

والخلف والأصحاب، فتعود الدولة بعزة متحققة بفتوحات ونصر جديد، لتعاون جديد منادية: يا خيل الله اركبى.. إنها لحظات مودة.. لحظات يمن بالله..

ولنقف مع النبى ﷺ وهو يقول لحارثة.. كيف أصبحت يا حارثة.. قال: أصبحت مؤمنا حقا يا رسول الله. قال: إن لكل حق حقيقة. فما حقيقة ما تقول؟ قال: عزفت عن الدنيا، واظمأت نهارى، وأسهرت ليلى. وكأنى أنظر إلى عرش ربى، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة فيها يتزاورون، وإلى أهل النار يتعادون. فقال له النبى ﷺ: أنت امرؤ نور الله قلبك، عرفت فالزم» [1].

إنها نقلة إلى الإيمان.. الإيمان بالله وملائكته واليوم الآخر..

ما أجمله من لقاء.، لقاء حب.. لقاء القلوب الوجلة، يقول سبحانه: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾ [الأنفال: ٢]

ما أجمل الإسلام عندما يصير سلاما وأمنا وراحة نفس، وطمأنينة ضمير واستقرار قلب..

إنه عند ذلك يبلغ منزلة الإيمان.. الإيمان الصادق. والعبد يعيش إيمانه مرتديا لباس الإسلام مطمئنا قلبه بالإيمان، ويحس العبد المؤمن أن الله معه فى كل حركاته وسكناته، فيحيا بين الخوف والرجاء، بين الرغبة والرهبة،

---

(١) أخرجه ابن عساكر- والبزار: عن أنس رضى الله عنه، والطبرانى من حديث الحارثة بن مالك.

فيتحرى حكم الله ومراده فى كل أمر من أمور حياته، يحيا بقلبه وسريرته مع الله، ويغيب حيث نهاه الله.

ذلك هو الإحسان الذى قال عنه النبى ﷺ حين سأله جبريل: ما الإحسان؟ فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

إن الإحسان مراقى السالكين المخلصين إلى الله- عز وجل- الذى قال: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ** ﴾ [النحل:١٢٨]

والذى قال: ﴿ **بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ [البقرة:١١٢]

نقاء الإيمان

لقد جاء النبى ﷺ ليصحح للناس اعتقادهم فى الله، فدعاهم إلى اعتقاد الكلمة الخالدة « لا إله إلا الله » وقال لهم ما قاله سابقوه من الأنبياء والمرسلين: « أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » . . وقال: ﷺ - كما ثبت عنه في الصحيحين - « من قال لا إله إلا الله ، وكفر بما يعبد من دون الله: حرم ماله ودمه، وحسابه على الله عز وجل »(١) .

ومن الناس من آمن وأخلص فى إيمانه، فاعتقد بربوبية الله وألوهيته، ونفى عن الله - سبحانه - الأنداد والشركاء، هؤلاء المؤمنون، هم الموحدون الذين طهر إيمانهم من كل شائبة شرك، وصفت عقائدهم من كل خبث ووثنية، وقال الله فيهم: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ** ﴾ [الأنعام: ٨٢]

ولما نزلت هذه الآية، قال الصحابة: وأينا لم يظلم يا رسول الله!

قال لهم النبى ﷺ : « ألم تستمعوا قول العبد الصالح: إن الشرك لظلم عظيم » .

ومن الناس - وهم كثير - من آمن بالله واعترف به سبحانه ربا خالقا رازقا، ثم أشرك بالله، وهذه الحقيقة قامت فى القرآن فى قوله تعالى : ﴿ **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ** ﴾ [يوسف: ١٠٦]

إن منطق الإيمان الصحيح الخالص، يقتضى من العبد أن تكون « لا إله

---

(١) رواه البخارى، ومسلم، والإمام أحمد .

إلا الله وحده لاشريك له » من قلبه بمثابة اليقين الذى لا يتطرق إليه أدنى شك أو ريب، وبهذا الاعتقاد بنفى المؤمن كل الوهية عما سوى الله، ويثبت الألوهية لله وحده، ولا أنداد ولا شركاء ولا وسطاء ولا شفعاء، فكل البشر عبيد، وكل الملائكة عبيد، وكل الجن عبيد، ومن فضلهم الله- سبحانه وتعالى- من البشر وكرمهم بالنبوة والرسالة عبيد الله. وأكرمهم وأشرفهم على الله وسيدهم: محمد ﷺ، يتكلم عنه الله أنه عبد فى مقامات كثيرة، ففى مقام التنزيل، يقول سبحانه: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا** ﴾ [الكهف: ١]

وفى مقام التحدى يقول سبحانه: ﴿ **وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ [البقرة: ٢٣]

وفى مقام الإسراء يقول سبحانه: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ** ﴾ [الإسراء: ١]

وفى مقام الدعاء: ﴿ **وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا** ﴾ [الجن: ١٩]

إن تلك الصفوة المكرمة المقربة: « أنبياء »، أم « ملائكة »، أم « مؤمنين »، لايملكون لانفسهم نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، فكيف يملكون ذلك لغيرهم، عندما نصحح المعتقدات بتلك المعارف نصبح جديرين بالنصر وبالجهاد فى سبيل الله...

عندها سنقاتل، وسننتصر، ويزول الباطل، ويقوم الحق بإذنه سبحانه..

إن النبى ﷺ علم أمته كيف يكون الاعتقاد فى الله، وأدب التوكل عليه – سبحانه– فيقول ﷺ لابن عباس وهو غلام: «يا غلام: ألا أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فاسأل الله، واذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشئ لن ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشىء لن يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»(١).

وإذا كان الله قد فضل الأنبياء والرسل على سائر خلقه، وخصهم بالنبوة والرسالة دون غيرهم من الخلق، فإن تلك الخصوصية لم تمنحهم قدرة تشركهم فى فعل من أفعال الله، أيا كان ذلك الفعل.. ولا فى صفة من صفاته سبحانه..

والله سبحانه وتعالى يبين ذلك فى كتابه الكريم، فيقول لنبيه ﷺ: **﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾** [الأحقاف: ٩]

وروى عن عائشة– رضى الله عنها– فى الصحيح أنها قالت: «من حدثكم أن محمدا يعلم الغيب فقد أعظم على الله الفرية» أى الكذب، ثم تلت قوله تعالى: **﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾** [النمل: ٦٥] وما تفضل الله به على أنبيائه إلا عطاء منه سبحانه لهؤلاء الصفوة الكرام، صلوات الله وسلامه عليهم جميعا.

---

(١) مسند أحمد: الجزء ١.

فهم الصفوة ، وهم المقربون، وهم خلاصة المعبدين لله تعبيدا اكتملت به فيهم بفضل الله وإنعامه ملكات التلقى، وملكات الحفظ، وملكات التبليغ، تبليغ الحق كما أنزله الله بلا زيف أو كتمان.

أعدهم الله إعدادا جعلهم شهادة حق، وبيان هدى، ونور طريق بين أيديهم آيات وآيات.. ما تلقوه من ربهم آية.. وتكليفهم بالبلاغ آية.. وقبول البلاغ آية.. والنصر بالحق.. وللحق آية.. والعطاء والمنع آية... والخلق والإبداع آية.

كلها آيات دالة على وجود خالقها ومبدعها .. وهم يفقهون كل آيات الله فقها يتحركون به على الأرض: دعاة، ومجاهدين ، ومبلغين ، ومقيمين لأمر الله.

وجاء محمد ﷺ على فترة من الرسل، لكافة الناس بشيرا ونذيرا.. جاء بالإسلام كله..

والإسلام: كله طاعة لله، كله عبودية له سبحانه، لا تتخللها وثنية أو شرك أو كفر.. وبذلك تكون أمته خير أمة أخرجت للناس، ينصرها الله- سبحانه- بما أحرزت من صدق النية والاعتقاد، فتنتصر وتحكم الأرض بأمر الله.

نعم، جاء محمد ﷺ بالتوحيد الخالص.. توحيد الله فى كل شىء: استسلاما لله فى كل شىء.. تنفيذا لأمر الله في كل شىء.. اجتنابا لنهى الله فى كل شىء..

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ١١٠]

المجتمع والفرد بين الإيمان والكفر

إن الإنسـان المسلم عندمـا يقف اليـوم من العـالم كله ليتـأمل وجـود مجـتمع إسـلامي يتـمـثل فى داره وجـود الإسـلام، وفى منحنيـات حـدوده الدولة المسلمـة التى يقـوم فـيـهـا، هـل يجـد اليـوم دار إسـلام أو مـجـتـمـعـا إسلاميا لا سلطان فيه لباطل، ولا كلمة فيه إلا للحق.. لا حكم فيه إلا لله، ولا حكم فيه لطواغيت الأرض..

وهل يجـد نظامـا للحكم يقـتـفى أثر الإسـلام: منهـجـا، وسلوكـا وحكما..

الإجابة صعبة وشديدة وقاسية، لكنها كلمة حق يجب أن تقال.

« والساكت عن الحق شيطان أخرس » قال تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [البقرة: ١٧٤]

إن المجتـمع الإسـلامى لا وجـود له اليـوم، إلا بين طيـات الكتب وبطون النصوص.

أما فى الواقع العملى فالمجتمع الإسلامى الصحيح غير قائم.

وليس للإسلام اليوم دار تقام فيها حدوده، وتحترم فيها كلمته، ويلتزم فـيـهـا بحكمـه ونظامـه، وليس هناك إلا الادعـاءات المفـتـراة، والشـعـارات الكاذبة.. الإسلام من كل هذا الهراء براء.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩]

إن الإسلام دين ودولة، وإن طبيعة هذا الدين وأصول عقيدته ترفض كل فهم خاطئ مستحدث مبتدع فى بلاد المسلمين.

وإن الذين يقولون: «إن الدين لله، والوطن للجميع» هؤلاء كاذبون فى قولهم، خائنون لوطنهم، عابدون لشيطانهم، ساجدون لسادتهم وكبرائهم، ويوم القيامة يقولون: ﴿ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً ﴾ [الأحزاب: ٦٧، ٦٨]

أصول الإسلام مرتبطة بمقتضى فهم شهادة أن «لا إله إلا الله محمد عبده ورسوله». واعتقاد الشهادتين يقرر: أن الحكم لله.

ويقرر كذلك، أن أصل الإسلام التزام بكل ما قرره القرآن، وبينته السنة، بلا عوج فى الفهم، أو زيغ فى التصرف، أو انحراف فى السلوك.

إن دار الإسلام: دار لا خبث فيها ولا فساد.. ولا حرب لله فيها ولا عناد.. بل إعلاء لكلمة الله، وإقامة لحدوده، وحماية لأولياء الله: أبناء الإسلام، أنفسهم، وأموالهم، ودمائهم، وأعراضهم، ولذلك أوجب الله الجهاد فى الإسلام حماية لداره وحفظا لدينه قال تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٩٣]

واعتبر الإسلام أن إعلاء كلمة الله، ورفع راية دينه وإقامة أمره ، هو سبيل الله، فقال ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا، فهو فى

سبيل الله » حديث صحيح [١].

والجهاد – كما قال ﷺ – ماض فى الأمة إلى يوم القيامة، لتبليغ الدعوة لمن لم تبلغه، من أهل الأرض جميعا، وإعلاء الكلمة، وإقامة الدولة.

« لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر الله وهم كذلك » [٢] حديث صحيح.

لا تزال جماعة من الأمة قائمة على الحق، ملتزمة به، حافظة لحدوده، مؤدية واجباته حتى قيام الساعة.

وهذه الطائفة أو هذه الجماعة المسلمة، مكلفة من قبل الله بالعمل والسعى والجهاد، لكى تعود للإسلام داره المغتصبة، وحرمته المنتهكة وحدوده المعطلة.. لكى يعود للمسلمين مجتمعهم ونظامهم وسلطانهم الذى يريده الله، لتتحقق قوامة المسلمين بأمر الله على أهل الأرض جميعا. وليبينوا للناس شهادة الحق، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد ذلك.

قال تعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** ﴾ [البقرة: ١٤٣]

إن الناظر بعقل وحكمة إلى المجتمعات فى عالم المسلمين اليوم ليشاهد كل مخازى السلوك وانحطاط الأخلاق، وسفاهة القول والفعل.. دور للرقص، والدعارة مختلفة الألوان والفنون والأسماء، دور للميسر تختلف

---

(١) رواه الإمام أحمد، وابن حبان، وهو حديث متفق عليه من البخارى ومسلم.

(٢) مسلم حديث: ١٩٢٠، جزء ٣.

فى أسمائها وأشكالها، وتتفق فى سيىء مقصدها وحقير غايتها.. مقاصف للخمر.. وحانات للهو والعزف.. ومسميات للفن، ومزامير للشيطان ونساء كاسيات عاريات.. صورة ليس فيها شارة للإسلام.

اللهم إلا المساجد والمآذن والأذان، وجماعة من قلة قليلة للصلاة، وربما لاصق المسجد مرقص، أو وكر حشيش ، أو مقصف لعب وخمر.

إن صورة هذه المجتمعات صورة بعيدة عن طريق الله، ولا يعقل- بعد رؤية حكيمة صحيحة إلى المجتمعات بما هى فيه وما هى عليه- أن يقال بعد ذلك إنها مجتمعات إسلامية صحيحة، وإن دارها دار إسلام.

وإذا كانت صورة المجتمع الظاهرة هى الانحراف، وصبغة الدولة فى سياستها صبغة غير رشيدة، فما الأمر بالنسبة للأفراد!

هل هؤلاء الأفراد الذين يعيشون فى هذه المجتمعات مسلمون أم غير ذلك؟

من المعلوم شرعا، أنه من الممكن أن يكون الأفراد كفارا، والدار دار إسلام، والدولة دولة مسلمة..

نعم من الممكن أن تكون دار إسلام وغالبية المجتمع غير مسلمة. فعندما فتح المسلمون مصر بقيادة عمرو بن العاص رضى الله عنه مثلا، كانت مصر آنذاك بعد الفتح مباشرة دار إسلام، وغالبية المجتمع المصرى نصرانية، وكذا الشأن فى البلاد التى فتحت بالفتح الإسلامى، وأقيمت فيها كلمة الإسلام، واستولى عليها سلطانه.

ومن الممكن أن تكون الدار دار كفر، وأفراد المجتمع مسلمين..

فالعبرة باعتبار الدار دار إسلام أو دار كفر وحرب، هى بإقامة الحكم

الإسلامى، وتطبيق الحدود والفرائض الإسلامية.

بعد هذه التوطئة يمكن أن نقول: إن كل من أظهر من الأفراد مظهرا من مظاهر الإسلام فهو على ظاهره مسلم، حتى يتبين لنا ما يوجب كفره يقينا وقطعا، والأدلة على ذلك كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا**﴾ [النساء: ٩٤]

ولا نكفر مسلما - أقر بالشهادتين وعمل بمقتضاهما وأدى الفرائض - برأى أو معصية، إلا إن أقر بكلمة الكفر، أو أنكر معلوما من الدين بالضرورة، أو كذب صريح القرآن، أو فسره على وجه لا تحتمله أساليب اللغة العربية بحال، أو عمل عملا لا يحتمل تأويلا غير الكفر.

قال الإمام أحمد: عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «مر رجل من بنى سليم بنفر من أصحاب النبى ﷺ يرعى غنما له فسلم عليهم، فقالوا: لا يسلم علينا إلا ليتعوذ منا، فعمدوا إليه فقتلوه، وأتوا بغنمه النبى ﷺ فنزلت هذه الآية: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا**﴾».

وقد ذكر فى الصحيح أيضا عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: بعث رسول الله ﷺ سرية فيها المقداد بن الأسود، فلما أتوا القوم وجدوهم قد تفرقوا، وبقى رجل له مال كثير لم يبرح فقال: « أشهد أن لا إله إلا الله،

وأهوى إليه المقداد فقتله، فقال له رجل من أصحابه: أقتلت رجلا شهد «أن لا إله إلا الله»، والله لأذكرن ذلك للنبى ﷺ، فلما قدموا على رسول الله ﷺ قالوا: «يا رسول الله: إن رجلا شهد أن لا إله إلا الله فقتله المقداد» فقال: ادعوا لى المقداد.. يا مقداد أقتلت رجلا يقول «لا إله إلا الله»، فكيف لك بلا إله إلا الله غدا». قال: فأنزل الله ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...** ﴾ فقال رسول الله ﷺ للمقداد: «كان رجل يخفى إيمانه مع قوم كفار، فأظهر إيمانه فقتله، وكذلك كنت تخفى إيمانك بمكة من قبل»(١).

ومن ذلك أيضا: ما ثبت فى صحيح مسلم من قول النبى ﷺ لأسامة ابن زيد- رضى الله عنه- حين قتل رجلا قال: «أشهد أن لا إله إلا الله» أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا»؟

فالنبى ﷺ أخبر أن قولة «لا إله إلا الله»، عاصمة لقائلها كيفما قالها.

وفى الصحيح أيضا قوله ﷺ: «من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فهو المسلم: له مالنا وعليه ما علينا»(٢).

وأيضا قوله ﷺ: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد، فاشهدوا له بالإيمان» (٣).

---

(١) ابن كثير، تفسير سورة النساء، ص ٥٣٨، ٥٣٩، جـ ١

(٢) وفى رواية رواها البخارى والنسائى عن أنس – رضى الله عنه-: «من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فذاكم المسلم الذى له ذمة الله وذمة رسوله، فلا تخفروا الله فى ذمته».

انظر «الفتح الكبير فى ضم الزيادة إلى الجامع الصغير» جـ٣ ص ٢٠٦، ٢٠٧.

(٣) وفى رواية رواها الإمام أحمد والترمذى وابن ماجه: «المساجد» بدل «المسجد».

وبذا، فإن من شهد أن « لا إله إلا الله » شهدنا له- على ظاهره- بالإسلام فإن ظهر منه بعد ذلك ما يوجب كفره - شرعا قاطعا ويقينا محققا - حكمنا بكفره.

ومن العجيب أن تفهم الآية سالفة الذكر فهما عكسيا، فيقال: إن الأصل في الناس التوقف فى أمرهم وإن قالوا « لا إله إلا الله » وإن اتجهوا إلى القبلة، حتى يتبين إسلام من أسلم منهم، فى حين أن قوله عز وجل فى الآية « فتبينوا » أى « فتثبتوا » يبين أن من نطق بشهادة الإسلام « لا إله إلا الله » شهد له بالإسلام، ولا يجوز شرعا أن يشهد له بالكفر، إلا إذا تبين كفره كالشمس فى رائعة النهار.

وكما يقول القليوبى الشافعى فى تعريف الردة: « هى قطع الإسلام بنية كفر، أو قول كفر، أو كفر مكفر: سواء فى القول قاله استهزاء أو عنادا أو اعتقادا ».

ويعرف ابن تيمية المرتد بقوله: « هو الكافر بعد إسلامه، فمن أشرك بالله، أو جحد ربوبيته، أو صفة من صفاته، أو بعض كتبه، أو رسله، أو سب الله، فقد كفر ».

وفى تعريف ابن قدامة الحنبلى: « المرتد هو الراجع عن دين الإسلام إلى الكفر، قال الله تعالى: ﴿ **وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ [البقرة: ٢١٧]

وقال النبى ﷺ: « من بدل دينه فاقتلوه » (١).

---

(١) احكام المرتد للسامرائى: رسالة، والحديث رواه البخارى. والإمام احمد وأبو داود، والترمذى والنسائى وابن ماجه.

ومن ارتكب معصية مستحلا لها، اعتبر كافرا لأنه أنكر حرمتها.

لكن المعاصى المجردة من الاستحلال: لا تخرج صاحبها من الإيمان، وإن كانت كبيرة.

ويقول الإمام أبو حنيفة- رحمة الله عليه- فى كتابه «الفقه الأكبر»: «ولا نكفر مسلما بذنب من الذنوب، وإن كانت كبيرة إذا لم يستحلها، ولا تزيل عنه اسم الإيمان، ونسميه مؤمنا حقيقة، ويجوز أن يكون مؤمنا فاسقا غير كافر».

وجاء فى الاعتصام للشاطبى: أن أبا حنيفة حين سأله عطاء بن أبى رباح من أين أنت؟، فقال أبو حنيفة: من أهل الكوفة.

قال عطاء: من أهل القرية «الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا؟».

قال: نعم...

قال عطاء: من أى فرقة أنت؟

قال أبو حنيفة: «ممن لا يسب السلف، ويؤمن بالقدر، ولا يكفر بذنب».

وعلى ذلك، فالأفراد مسلمون حتى يتبين منهم ما يخرجهم عن دائرة الإسلام، بإنكار شىء من الأركان، أو تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرم الله.

وأما عن الحكام المعطلين قصدا وعمدا لأحكام الله، والآخذين بمفاهيم وتصورات ومناهج الكافرين، وفرضها قسرا وجبرا على مجتمعات

المسلمين، كالنظام الشيوعى وغيره من مسميات الجاهلية العصرية.

وأما عن الحكام المحاربين لدين الله فى الأرض، الكارهين لحكم الله، المعاندين لأوليائه والدعاة إليه سبحانه.

هؤلاء الذين ابتلى المسلمون بهم، وإن تسموا بأسمائهم، أو تزيوا بزيهم، هؤلاء بعيدون عن الإسلام وروحه ومنهجه.

وكيف لايكون ذلك، وهم المحاربون المدبرون، ليلهم ونهارهم للقضاء على دين الله..!!

إنها قضية دقيقة وصعبة..

ولكن لابد من أن نجد من يبحثها بشجاعة، وقوة، وبذل للنفس والمال والحياة.

فكل ذلك سيفنى، ويبقى وجه ربك ذى الجلال والإكرام.

والموت يقع ، لمن يقول الحق ولمن يقول الباطل..

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره، والعبرة بنهاية الإنسان..

والنبى ﷺ يقول: «أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»

ويقول: «أعظم الشهداء حمزة، ورجل قام إلى إمام جائر، فأمره ونهاه فقتله».

وما أصاب الأمة الإسلامة ما أصابها من ذل وانحدار وانحطاط وتأخر: إلا لما ملك الجبن ضغاف قلوب أبنائها فهابوا الحكام.. ولم ينصحوا، ولم يوجهوا.. حتى سدر الحكام فى غلوائهم، واستمروا فى جاهليتهم.

وليعلم المسلمون جميعا: أن الواجب عليهم أن يبلغوا رسالة الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله، وإن اغتيلوا أو قتلوا بأيدى فجرة طغاة بغاة، فإنما هم عند ربهم أحياء يرزقون، والذين عاشوا ويعيشون فى سبيل الطاغوت أموات غير أحياء، وإن عاشوا مئات السنين، وإن ظلوا على كراسى الحكم.. والله يقول: ﴿ **أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ** ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦]

الإيمان طاقة وبناء

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحجرات : ١٥]

إن الإيمان طاقة بناءة، باعثة للحياة التى تنتقل بصاحبها من عالم إنسان يقدر الحياة بعاطفة محدودة، فى محيط الأبوة والزوج والأمومة والولد والمال : يصلح به أمر جماعته الصغيرة المحدودة، إلى عالم المسئولية : أولا عن وجوده هو ذاته، ومع من يقف، وأى حياة تحتويه ؟ .

إنها الحياة التى أرادها الله سبحانه . . . إنها الرسالة الواجبة والتكليف بالعمل مع ذاته وأسرته المحدودة، ثم مع الكون كله يسوسه ويتعايش معه فى ظل قانون الله . . قانون الفطرة : ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : ٣٠]

والإيمان : نعمة من الله لا تدانيها نعمة، وسنة لا تجاريها سنة : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الحجرات : ١٧]

والدنيا بأعراضها وزينتها ومباهجها : يعطيها الله لمن يطيع ولمن يعصى، ولكن الهداية والإيمان لا يمنحهما الله إلا لمن خصه بمحبته وفضله : « إن الله يعطى الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب، ولكنه لا يعطى الإيمان إلا لمن أحب »[١] .

---

(١) مسند الإمام أحمد : جزء ١، ص ٣٨٧ .

وحياة الإيمان: نور يقين، وصدق بصيرة، وإحساس بقدرة الخالق سبحانه وحكمته، وتجاوب مع خلق الله،، مع كون الله.. مع قدر الله.. مع كتاب الله.. ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الحشر: ٢٤]

وبالإيمان بالخالق وصفاته، وحكمة الخلق والإيجاد: يعرف العبد طريقه إلى الله، فيعيش حياة مودة وحب وإخلاص، وصلة بمن بيده ملكوت السموات والأرض، فيحس أنه موصول القوة بالله سبحانه وتعالى.. موصول الولاية به جل شانه.. موصول المعارف.. موصول العلم. ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤].

ويعيش المؤمن حينئذ بطاقة تتفجر منها مسئوليات كبيرة، يحسها عندما يعيش مع منهج الله فى كتابه، ومع بيان ذلك المنهج فى سنة رسول الله ﷺ.. يعيش ليجد أن الله اجتباه واختاره لريادة هذا العالم، وتوجيهه، وإرشاده والقوامة عليه.. كما اختار من قبل «صفوة الصفوة» من البشرية، وهم صحابة النبى ﷺ الذين تلقوا تعاليم الله وهديه، وأوامر النبى ﷺ وسننه بقلب ملأه الإيمان، وحس ملأه اليقين، وكانوا يقولون: «كنا نؤتى الإيمان قبل القرآن».

ويقولون: «هيا نؤمن بربنا ساعة».

وهنا يجد المؤمن أن به قوة وطاقة متحركة للبناء والتأسيس، كان من

قبل، لا يظن أنه من القادرين عليها، ولكن الإيمان بقوة منطقه، وصفاء روحه يرتفع بالإنسان إلى مستوى المسئولية، وينطلق به فى هذا الكون كله: حركة دائبة، وجهادا ماضيا، وسعيا مستمرا، لكى يحقق ما ألقى على عاتقه من واجبات الخلافة عن الله فى الأرض، والقوامة بأمر الله فيها.

والله سبحانه وتعالى يعد عباده أن من آمن منهم وأخلص الوجهة لله، يستخلفه الله ويمكن له فى الأرض: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ [النور: ٥٥]

ويقول جل شأنه على لسان هود - عليه الصلاة والسلام -: ﴿ **أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [الأعراف: ٦٩]

وعلى لسان صالح - عليه الصلاة والسلام - لقومه: ﴿ **وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ** ﴾ [الأعراف: ٧٤]

وقال تعالى: ﴿ **أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ** ﴾ [النمل: ٦٢]

والإنسان لا يستطيع أن يكون خليفة فى الأرض إلا بإيمان يمنحه طاقة

للعمل، ويمنحه قوة يأخذ بها عن ربه، من عهود ومواثيق وأحكام وتكاليف.

﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ [مريم: ١٢]

﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ٦٣]

﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ [ص: ٢٦]

وبالإيمان يدخل المؤمن مع ربه في بيعة.. بيعة له سبحانه لنصرة دينه، وإعلاء كلمته.

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١١١]

وهنا لنا وقفة مع قوله تعالى: «من المؤمنين» فلم اشترى الله سبحانه من المؤمنين، ولم يقل سبحانه «من الناس» أو «من الخلق» أو «من العباد». أعتقد - والله أعلم- أن «العباد» و«الناس» و«الخلق» أيًا منهم: لا يقوى على البيع لله إلا إذا استوت فيه أدوات القوة، التصديق بالله، والدينونة له، وقوة اليقين بعطائه سبحانه وحسابه وجزائه.. وأنه بصدق يقين العبد بالله، واعتقاده أن الله هو الباقي ذو القوة المتين، وأنه سبحانه هو الغني، وهو العليم، وهو المعز المذل، وكل ما في يد العبد، وما بين يديه: زائل وكل

نعيم فى عالم الدنيا منته، وأن الحساب حق، والجنة حق، والنار حق.. وأن المال قد يزول عن صاحبه، وهو لايزال فى الدنيا، أو يزول العبد من ماله فيذهب إلى ربه ليحاسبه عنه.. وأن «كل من عليها فان، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام».

هذا التصور الإيمانى السليم لدى المؤمن، من لدن آدم- عليه السلام- حتى مجيء محمد - عليه الصلاة والسلام- وإلى أن تقوم الساعة، هذا التصور يجعل المؤمن قويا منطلقا بطاقة فعالة، فهو يأخذ عهد الله بقوة يقين وصدق إيمان، فيخرج عن الدنيا وعلى الدنيا كلها بسهولة، والسعادة تملأ حسه، والطمأنينة تغمر قلبه... فالدنيا لديه معبر مسخر لخدمته، وهو المستعبد لها، وشتان بين ما تستعبده الدنيا فتستعمله لها، ومن يملكها فيستعملها لله سبحانه وتعالى.

وبالمودة لله - سبحانه- والحب له، وفيه، وبه سبحانه، يأبى المؤمن إلا أن يكون سيد الدنيا.. ذلك المؤمن هو: الذى شرفه الله فأعطاه القوة، ومنحه الإيمان بملكاته وطاقاته، فضلا منه سبحانه وإحسانا، ثم كرمه فاشترى منه ما أعطاه.. وما ذلك إلا تكريم وتشريف، حتى يرتفع ذلك الإنسان المؤمن بذلك التكريم بتصوره السليم لمنهج الله، وبحسن التزامه منهج الله، تتفجر في نفسه طاقات إيمانية تبعث فيه ملكات الجهاد فى سبيل الله.

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩]

وتتفتح فى المؤمن أنفاس صدق الالتزام فتتحقق به مثل عليا فى الصدق

والأمانة والقناعة، والبذل والرضا والوفاء، والشجاعة والعفة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ١-١١]

إن المؤمن عبد: صدق مع الله فصدقه الله، ومنحه إحسانا، فرفعه مع الذين صفت أرواحهم وارتفعت بصائرهم، وطهرت سرائرهم وطابت أعمالهم، فعاشوا لله، وبالله، وفى الله.

وكما قيل فى المؤمن: «إنه إذا حكم أصاب، وإذا فعل أطاب، وإذا تكلم أتى بفصل الخطاب».

إنه إيمان الذين باعوا أنفسهم وأموالهم لله، استعلاء على طين الأرض، فأرادوا حكم الأرض بأمر الله ونبيه، حتى يرضى الله عنهم، أبوا إلا أن يكون البيع لله، صاحب النفس، وصاحب المال، وصاحب الأرض، وصاحب السماء.

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح: ١٨]

وقال جل شأنه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ

﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠]

والصحابة- رضى الله عنهم ورضوا عنه- ، هم أول من خلعوا عن أنفسهم كل شغف للدنيا، وكل تعلق بها، وباعوا أنفسهم وأموالهم لله- عز وجل-.

وتحكى لنا الروايات الثابتة كيف كانت بيعات الصحابة للنبى ﷺ وعلام كانت.

لقد كانت بيعا لله على التزام أمره، والجهاد فى سبيل إعلاء كلمته.

عن عباده بن الصامت- رضى الله عنه- قال: « كنا أحد عشر رجلا فى العقبة الأولى، فبايعنا الرسول ﷺ -بيعة النساء، قبل أن يفرض علينا الحرب، على ألا نشرك بالله شيئا ولا نسرق ولا نزنى، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نقتل أولادنا، ولا نعصيه فى معروف، فمن وفى فله الجنة ومن غشى شيئا فأمره إلى الله: إن شاء عذبه وإن شاء غفر له » (١).

وبعد أن اكتمل أمر الإسلام وتمت نعمة الله، كانت البيعة على الأمر كله، صلاته وزكاته وحجه، وجهاده، ولا تقبل بيعة بغير ذلك.

أخرج الطبرانى فى الأوسط وأبو نعيم فى الحلية والحاكم والبيهقى وابن عساكر، عن بشير الخصاصية - رضى الله عنه- قال: «أتيت النبى ﷺ لأبايعه، فقلت: علام تبايعنى يا رسول الله؟ فمد رسول الله ﷺ يده

(١) أخرجه الشيخان.

وسلم، فقال: تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وتصلى الخمس لوقتها، وتؤدى الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان، وتحج البيت، وتجاهد فى سبيل الله.

قلت: يا رسول الله كلا نطيق إلا اثنتين فلا أطيقهما: الزكاة والله ما لى إلا عشر زود (١) من رسل (٢) وحمولتهن(٣)، وأما الجهاد، فإنى رجل جبان، ويزعمون أنه من ولى فقد باء بغضب من الله، وأخاف إن حضر القتال أن أخشع بنفسى، فأفر فأبوء بغضب من الله. فقبض رسول الله ﷺ يده ثم حركها، ثم قال: يا بشير: لا صدقة ولا جهاد، فبم إذن تدخل الجنة!! قلت: يا رسول الله ابسط يدك أبايعك، فبسط يده فبايعته عليهن كلهن».

واليوم وأمة المسلمين غائبة عن ساحة الحياة، غارقة فى تيه مفاتن الجاهلية، مأخوذة برعدة قاتلة.

اليوم والطاغوت المشرع بغير ما أنزل الله، والحاكم بما زين الشيطان ويزين، جاثم فوق صدرها يخيفها بالسيوف والمقاصل وسراديب الماء والنار، والوحوش من البشر والكلاب.

اليوم، والمسلمون فى غفلة، والإسلام يناديهم «أن أفيقوا من سكرتكم، وثوبوا إلى رشدكم، وأخلصوا لله وجهتكم، وأن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه، وأن جاهدوا فى سبيل الله لإعلاء كلمته وإقامة أمره

---

(١) الزود من الإبل: ما بين الثنتين إلى التسع

(٢) الرسل بالكسر ثم السكون: اللبن.

(٣) ما يحتمل عليه الناس من الدواب.

بأموالكم وأنفسكم».

اليوم، والعودة إلى كتاب الله وإلى منهاجه، وإلى حكمه: تفرض نفسها ضرورة شرعية، بل حتمية إسلامية قائمة.

فلابد إذن من تجديد، «ولو بنفس مسلمة واحدة».. نفس انتشلها الله - سبحانه- من ذلك الشتات المبعثر، الذى يسمى اليوم «بالعالم الإسلامى» وهو فى حقيقته «غثاء» كما قال ﷺ: «ولكن غثاء كغثاء السيل».

نعم بنفس مؤمنة واحدة، يقوم بها إيمان قوى صادق بالله، يمنحها طاقة تمكنها من أخذ أمانة الله بقوة، فتجدد العهد مع الله، حتى يعود لهذا الشتات عزته وكرامته وحياته ودولته وأمته.

نعم، لابد من مجدد مؤمن بالله، فقيه فى أمره، يبايع الله على نصرة دينه، ويأخذ العهد على نفسه لله بالعمل بالكتاب والسنة، ويبيع نفسه وماله لله: ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ [الأحزاب: ٢٣، ٢٤]

والنفس التى تسعى لإقامة أمر الله فى الأرض، لها عند الله كبير المنزلة ورفيع الدرجة: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧]

والعمل الصالح لايقوم إلا بنفس قوية مؤمنة.. والنفس الطيبة هى أهل لكل عمل طيب، والطيب قوى لأنه سليم، والعطب مرض، والسلامة

صحة، والحياة الطيبة منحة من الله- عز وجل- فهو سبحانه طيب لا يقبل إلا طيبا. والإيمان لايقوم إلا بنفس طيبة: إرادة، وطيبة، واعتقادا بحق يحيا له الإنسان، وفي سبيله يعيش، ولئن أراد الله منه أن يبذل الحياة كي يقوم الحق، فما أرخص الحياة، وما أبخس المال والنفس فى سبيل إعلاء كلمة الله.

فمتى، وأين يأتى ذلك الطيب القوى، المؤمن المجدد، ليأخذ العهد والبيعة، فتقوم به جماعة... فدولة.

إن النبى ﷺ يقول: «بدأ الإسلام غريبا، وسيعود غريبا كما بدأ، فطوبى للغرباء»[1]. أى الذين يصلحون ما أفسد الناس، يقال للرجل فى حى كذا وفى بلد كذا: «هذا غريب» فالإسلام بدأ فى مكة غريبا، بقلة أهله وضعفهم، وقلة أنصاره وأشياعه، ثم شاء الله أن يزول عن الإسلام وصف الغربة، فقامت دولة المسلمين فى المدينة ثم ما لبثت بعد عهد الخلفاء الراشدين أن اشتدت الخصومات والعداوات، وحيكت المؤامرات للقضاء على الإسلام، واغتصب من المسلمين سلطانهم، وفرضت عليهم مناهج شتى فأبعدتهم عن روح الإسلام وشرعه، تدريجيا، فصار الإسلام غريبا مرة أخرى...!

والغرباء ينتظرون من يحمل الراية، ويعلن الكلمة بإيمان وقوة وإرادة وبيعة.. وصاحب تلك النفس المبايعة فى سبيل الإسلام: يعيش أو يموت على حد سواء، ذلك أمرطبيعى عند من فقهوا قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا

(١) مسلم كتاب الإيمان ص ١٢٨، الجزء الاول، ورواه الترمذى، والطبرانى، وأبو نصر

وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢) ﴾ [التوبة: ٢٠-٢٢]

فالجهاد عند المؤمنين هو: الحياة والبذل لتخليص النفس من زيف الدنيا وبريقها..

الجهاد، هو روح الحياة.. وبهذه الحياة يكون العهد مع المجدد لأمر الدين، والمبايع لله، ثم عن الله، ثم عن رسول الله ﷺ.

يكون العهد مع المؤمنين ليعود الإسلام: دين أمة، تعايشه فى كتاب الله، وسنة نبيه، أمة تقوم فيها بالحق دولة تعدل بالكتاب، وتبين بالسنة، فتلتزم الدين كله..

وذلك هو الإيمان بطاقته وملكاته..

وما أجمل الإيمان بإرادته وعدته وعتاده، عندما لا يعبأ بما للشيطان وجنده وتزيينه.

وما أجمل المؤمن الآتى ببيعة مع الله ورسوله والمؤمنين.

وما أجمل المؤمن عندما يتعالى على إبليس وأوليائه، ويزدرى الطاغوت وأنصاره.

وما أعظم صاحب البيعة عندما يحيا بإيمانه المفجر لطاقة التجديد فيه.

وما أعظمه حين يرى طواغيت الأرض صغيرة.. صغيرة .. حقيرة.. حقيرة.

الجاهلية كلها بشياطينها صغيرة.

الباطل صغير، صغير، حقير حقير.

أما البيعة لله، فهى كبيرة كبيرة.

وأما الله – سبحانه وتعالى– صاحب البيعة، فهو سبحانه حياة ذلك الذى تقدم وبايع ليجمع الصف ويوحد الكلمة مؤيدا من الله وموفقا.

تلكم هى ثمرات الإيمان إذا صدق.. وطاقاته إذا قوى فى قلوب أبنائه.. وذلك هو الإيمان.. طاقة.. وبناء..

فهرس

رقم الإيداع ١٦٩٤١ / ٩٩
الترقيم الدولى .I.S.B.N
977- 265 – 270 – 6

دار الطباعة والنشر الإسلامية

مطابع دار الطباعة والنشر الإسلامية
العاشر من رمضان المنطقة الصناعية ب ٢ - تليفاكس : ٣٦٣٣١٤ - ٣٦٢٣١٣
مكتب القاهرة : مدينة نصر ١٢ ش ابن هانيء الأندلسي ت : ٤٠٣٨١٣٧ - تليفاكس : ٤٠١٧٠٥٣